الباب الثانى

المدينة فى الدولَ النامية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس

أمريكا اللاتينية

عرفت أمريكا اللاتينية المراكز الحضرية الكبيرة قبل وصول البرتغاليين والاسبان اليها بوقت طويل • ومعنى ذلك أن النشأة الاستعمارية لبعض مدن الدول النامية لا تكاد تكون شائعة الى حد كبير فى هذه القارة • ففى آسيا وأفريقيا أقامت القوى الاستعمارية الاوربية مدنا عديدة خلال القرن التاسع عشر ، بينما لا نجد نظيرا لهذا الموقف فى أمريكا اللاتينية،مماقديمنحها قدرا من « الخصوصية الحضرية » على الاقل من وجهة النظر التاريخية • بيد أن ذلك لايعنى ان البرتغاليين والاسبان لم يهتموا باقامة مدن فى أمريكا اللاتينية • إن عكس ذلك هو الصحيح تماما • فخلال القرن السادس عشر أنشأ الاسبان عددا من المدن « الاستعمارية » المتشابهة فى بناءاتها الايكولوجية ووظائفها الحضرية[1] • وعلى الرغم من أن النمو اللاحق الذى طرأ على هذه المدن قد طمس بعض معالمها المميزة ، الا أننا مانزال نلمس حتى الآن التشابه الكبير بينها • لقد كان الهدف الاساسى من انشاء هذه المدن هو اقامة مراكز ادارية هامة ونقاط عسكرية حصينة يستطيع من خلالها الاسبان صد أى هجوم عسكرى محتمل • كذلك فلقد كانت هذه المدن بمثابة وسائل أساسية للتحكم فى المناطق الريفية المحيطة بها والحصول على المنتجات الزراعية ، التى ما تلبث ان تتجه الى العاصمة الاسبانية أو « الميتروبولس » Metropolis • على أن هذه المدن الاستعمارية لم تكن تنعم بالاستقلال الذى كانت تتمتع به المدن الانجليزية خلال تلك الفترة •

---

(1) R. Morse; «Recent Research on Latin American Urbanization : A Selecitve Survey with Commentary»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1966; pp. 472-506.

إذ أن التاج الاسبانى قد منع أية نشاطات تجارية أو صناعية من شأنها التقليل من تبعية هذه المدن للعاصمة الاسبانية • ويمكننا اعتبار عام ١٥٨٠ أحد المعالم الحضرية الهامة فى أمريكا اللاتينية • اذ اقيمت خلاله ستة عشر مدينة ماتزال قائمة حتى يومنا هذا • أما التوجيه الاقتصادى والاجتماعى والسياسى لهذه المدن فكان صوب مدريد أولا ، وأسبانيا ثانيا • ومعنى ذلك أن هذه المدن لم تكن موجهة لخدمة المناطق الريفية الوطنية المحيطة بها بقدر ما كانت موجهة لخدمة العاصمة الأم : مدريد • بعبارة أخرى بدت هذه المدن وكأنها كيانات « هلامية » لم تتطور بطريقة طبيعية من خلال بيئاتها • وقبل فترة الاستقلال بقليل (حوالى سنة ١٨٢٥) طرأت بعض التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المحدودة على هذه المدن الاستعمارية • ومع ذلك فان هذه التغيرات لم تؤد بعد ذلك الى ظهور مدن صناعية من ذلك النمط الذى عرفته أوربا الغربية • فأقصى ما وصلت اليه هذه المدن من تقدم صناعى يتمثل فى بعض الصناعات الخفيفة كالغزل والنسيج ، خاصة وان المزارع الاقطاعية الضخمة haciendas كانت تضمن تزويد هذه الصناعات بالمواد الخام • ولقد كانت سياسة أسبانيا ازاء المستعمرات واضحة كل الوضوح • فالهدف النهائى لهذه السياسية كان استنفاذ الموارد الطبيعية للمستعمرات وعلى الاخص الذهب والفضة والاحجار الكريمة ونقلها بعد ذلك الى مدريد ، ثم تظل هذه المستعمرات بعد ذلك معتمدة اعتمادا كليا على السلع المصنعة التى تصلها من الموانى الاسبانية التى كانت أشبه بقلاع حصينة • ومن الطبيعى أن تحدث هذه السياسة تأثيرات ضارة على مدن أمريكا اللاتينية خلال تلك الفترة • اذ أن هذه المدن قد حرمت من أهم وظيفتين هامتين هما : التجارة ، والصناعة[1] • ويكفى فى هذا المجال أن نقارن بين مدن أمريكا اللاتينية والمدن البريطانية خلال القرن السادس عشر • فبينما استطاعت الاخيرة

---

(1) Lynn Smith; «Urbanization in Latin America»; in Nels Anderson (ed.) Urbanism and Urbanization; Leiden; 1964; pp. 127-142.

تحقيق نمو حضرى هائل بسبب تنوع نشاطاتها ، ظلت الاولى محافظة على حجمها « القزمى » لفترة طويلة • لقد كانت وظيفة موانى المستعمرات الاسبانية مقصورة على تلقى السلع والبضائع التى تأتى اليها كل عام وشحن المواد الخام الى أسبانيا •

ولقد أوضحت بعض الدراسات التاريخية أن الاستعمار الاسبانى لمعظم أجزاء أمريكا الجنوبية قد أدى الى تقلص المدن الهندية التى كانت قائمة قبل الكشوف الجغرافية • اذ أن الاستعمار الاسبانى قد أدى الى تفريغ بعض هذه المدن من سكانها من الهنود الحمر وتحويل اقتصادها لخدمة أهداف التجارة الاستعمارية[1] • والواقع أن الاسبان الغزاة لم ينظروا الى هذه المدن الا من خلال الاهداف الاقتصادية التى يمكن أن تحققها لهم ، حتى جمهوريات أمريكا اللاتينية لم تفعل الشىء الكثير بعد حصولها مباشرة على الاستقلال السياسى من أجل الحفاظ على آثار الحضارات القديمة التى كانت أفضل تعبير عن الكرامة الوطنية والتراث التاريخى • ويبدو أن المدن الساحلية الصغيرة التى أنشأها الغزاة الاسبان والبرتغاليون فى أمريكا اللاتينية خلال الفترة الاستعمارية كانت تتشابه فى عدد كبير من الخصائص • إذ أن هذه المدن كانت فى معظم الاحيان موانى بحرية أقيمت لخدمة أهداف اقتصادية وصممت على نحو يضمن تحقيق المتطلبات الامنية والسياسية • بعبارة أخرى كانت هذه المدن تحقق عددا من الوظائف الهامة فى آن واحد تبدأ بالوظيفة الحربية ــ السياسية ، مرورا بالوظيفة التجارية ، وصولا الى الوظيفة الادارية الاستعمارية • ومع ذلك فلقد كانت هناك فروق ملحوظة بين المدن التى أقامها الاسبان ، وتلك التى أقامها البرتغاليون • فبسبب قلة عدد سكان البرتغال نجدهم يتوغلون الى الداخل قليلا ويستعينون بالقوة البشرية الوطنية ، بينما لايضطر الاسبان الى ذلك مفضلين الاستغلال الاقتصادى للمناطق

---

(1) Andre Frank; Capitalism and Underdevelopment in Latin America; New York; Monthly Review Press; 1969.

الشاسعة من خلال التمركز فى مواقع حصينة[١] . وأيا كانت العوامل التى أدت الى اختلاف النمط الحضرى فى كل من المستعمرات الاسبانية والبرتغالية ، فان هناك قضايا عامة تطرح نفسها فى هذا المجال . فالاستعمار (الاسبانى والبرتغالى) كان فى حقيقة الامر « استعمارا حضريا » ، أنجزته عقول حضرية أوربية . كذلك فان اختيار مواقع المدن على مستوى القارة بأكملها كان يعكس قدرا كبيرا من العشوائية بسبب سيطرة الاعتبارات الدفاعية والامنية التى كانت كثيرا ما تتغير بسبب تقدم التكنولوجيا العسكرية . وواقع الامر أن المستعمرين الاوائل من الاسبان والبرتغاليين قد سعوا الى تفريغ المناطق المحيطة بالمدن الجديدة من سكانها الوطنيين . أما العلاقة بين هذه المدن فلم تنمو وتتطور الا خلال فترة متأخرة نسبيا ، ذلك أن الحواجز الجغرافية ، والمسافات الهائلة التى كانت تفصل بينها ، فضلا عن تخلف وسائل النقل والاتصال ، كل هذه العوامل أسهمت فى تعميق العزلة بين هذه المدن مما سهل على الاستعمار احتوائها والسيطرة عليها .

وخلال فترة الاستعمار الايبيرى لامريكا اللاتينية طرأت تغيرات ديموجرافية هامة ، على الرغم من صعوبة الوصول الى تعميمات قاطعة فى هذا المجال . فمنذ بداية القرن السادس عشر والقارة تشهد نموا سكانيا ملحوظا . ففى سنة ١٥٧٠ بلغ عدد سكان القارة ١٠٫٢ مليون نسمة فى مقابل ١١٫٤ مليون نسمة فى سنة ١٦٥٠ و ١٨٫٩ مليون نسمة فى سنة ١٨٠٠ . وفى سنة ١٩٠٠ وصل عدد سكانها الى ٦٣ مليون نسمة ؛ الى أن وصل فى سنة ١٩٥٠ حوالى ١٦٠ مليون نسمة[٢] . أما أكبر زيادة

---

(1) Richard Morse; «The Heritage of Latin America»; in Louis Hartz; (ed.) The Founding of New Societies; New York; 1964; pp. 123-177.

(2) See Bert F. Hoselitz and Wilbert E. Moore (eds); Industrialization and Society. UNESCO : Mouton; Paris; 1963 and Philip M. Hauser (ed.) Urbanization in Latin Amerca; UNESCO; Paris; 1961.

سكانية طرأت على أمريكا اللاتينية فقد حدثت خلال العقود الثلاث الماضية ، حيث وصل عدد سكانها الى ٢٩١ مليون نسمة • وفى أواخر القرن الثامن عشر بدا واضحا أن الزيادة السكانية على مستوى القارة قد بدأت ترتبط بالنمو الاقتصادى ، والتحديث التكنولوجى ، والنهضة التى شهدتها المدن الكبرى منذ ذلك الحين • غير أن ذلك لم يتحقق بدرجة واحدة فى كل أجزاء أمريكا اللاتينية • فلقد ظلت بيرو ــ مثلا ــ تعانى من التخلف الاقتصادى الشديد لفترة طويلة • ومن خلال السيطرة الاستعمارية شهدت مدن أمريكا اللاتينية بناء طبقيا جامدا يعكس بدقة ووضوح متطلبات هذه المرحلة من الاستغلال الخارجى والداخلى على السواء • فعلى قمة هذا البناء الطبقى نجد كبار ملاك الارض البيض الذى كانوا يتفاخرون دائما « بنقاء » دمائهم وعروقهم • ومن خلال المزارع الاقطاعية الضخمة التى كانوا يملكونها حققوا سيطرة سياسية على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية[1] • وهناك أيضا تجار التصدير الذين كانوا يحتكرون تصدير المنتجات الزراعية الى أسبانيا والبرتغال ، ويستغلون ــ فى نفس الوقت ــ صغار الفلاحين باغراقهم فى الديون ثم السيطرة على محاصيلهم • وهناك أيضا تجار الاستيراد الذين كانوا من الاسبان الذين يرتبطون ارتباطا قويا بالاجهزة الادارية الملكية • وعلى الرغم من ان أفراد هذه الفئة (تجار الاستيراد) كانوا يدخلون فى صراعات مع أفراد الفئتين السابقتين (أصحاب المزارع الاقطاعية وتجار التصدير) ، الا أن ولاءهم لكبار الموظفين الاسبان كان يضمن لهم الانتماء الى « الطبقة البرجوازية » • واذا كان هذا البناء الطبقى الاستعمارى قد أتاح الفرصة لظهور تنوع داخل الطبقة العليا ، الا أنه لم يسمح بظهوره داخل الطبقة الدنيا • ففيما عدا الطبقة العليا تدخل كل قطاعات السكان داخل الطبقة الدنيا التى تضم فيما تضم الجماعات ذات الدماء المختلطة والسكان المحليين • اذ أن العرق

---

(1) F. Chevalier; Land and Society in Colonial Mexico : The Great Hacienda; Berkeley : University of California Press; 1965.

ـــ فضلا عن العوامل الاقتصادية والثقافية الاخرى ـــ كان يشكل أحـد الابعاد الاساسية التي يستند اليهـا البناء الطبقى فى مجتمعات أمريـكا اللاتينية خلال الحقبة الاستعمارية[١] •

ويبدو أن المدن الاستعمارية التى أقامها الاسبان فى أمريكا اللاتينية قد اعتمدت فى نمطها ونموها على توجيهات كل من شارل الخامس وفيلب الثانى • وبمقتضى هذه التوجيهات كانت المدن تقام فى مناطق غير مأهولة بالسكان ، وقريبة قدر الامكان من الأنهار • ومن شأن ذلك أن يسمح لهـا بامكانيات الامتداد المكانى دون مواجهة العقبات الجغرافية أو المشـكلات البشرية • ولقد حرصت القوى الاستعمارية (وعلى الاخص الاسبانية) على وضع مجموعة من القواعد العامة التى تحكم التخطيط الحضرى لهـذه المدن • من ذلك ضرورة اقامة ساحة أو ميدان عام كبير يحيط بالكاتدرائية والمبانى الحكومية الهامة • أما قطع الارض المخصصة للبناء فكانت متساوية ومربعة قدر الامكان ، مما منح التوزيع المكانى لهذه المدن المبكرة طابعا هندسيا • وكما هو الحال فى معظم مدن العصـور الوسطى كانت المنـازل تحاط بجدران عالية من جميع اتجاهاتها • وبسبب النشأة الحربية لهـذه المدن والوظائف الادارية التى كانت تؤديها بالنسبة للريف المحيط بهـا ، بدت مواقع بعض هذه المدن غير ملائمة تماما للنقل والمواصلات • فعلى سبيل المثال أقيمت مكسيكوسيتى على جزيرة تقع وسط بحيرة[٢] • ومعنى ذلك أن الاعتبارات السياسية كانت تلعب الدور الاساسى فى تحديد مواقع المدن • بل إن مكانة المدينة ومرتبتها داخل المدن الاقليمية لم تكن تتحدد فى ضوء الاعتبارات الاقتصادية القومية بقـدر ما كانت تتحدد فى ضـوء الاعتبارات السياسية الاستعمارية • ولقد بذلت الحكومة الاسبانية جهودا

---

(1) Richard Morse: «Recent Research on Latin American Urbanization....» in G. Breese; (ed.) op. cit; p. 481.

(2) John Palen: The Urban World; McGraw Hilll Book Company; N. Y; 1975; p. 335.

كبيرة من أجل تشكيل بناء طبقى حضرى جامد يتفق مع أهدافها ومصالحها • فكل الوظائف الادارية والدينية والسياسية العليا كانت من نصيب الذين ولدوا فى أسبانيا • أى أن الصدفة البيولوجية كانت المحدد الاساسى للقوة الاقتصادية والسياسية والروحية • أما الذين ولدوا فى مستعمرات أمريكا اللاتينية ــ مهما كانت ثرواتهم وأوضاعهم العائلية ــ فكانوا يشغلون الوظائف الدنيا الثانوية • وربما كانت هذه التفرقة الصارخة سببا رئيسيا فى تمرد الوطنيين على السلطات الاستعمارية وتحقيق الاستقلال السياسى فى فترة لاحقة •

وهناك شواهد تاريخية عديدة تشير الى ان المستعمرين الاسبان كانوا ينجذبون الى الاقامة فى المدن وعلى الاخص فى فترات الاستقرار السياسى التى أعقبت الغزوات الاستعمارية • أما المزارع الاقطاعية التى كان الاسبان يملكونها فكانت تخضع للملكية الغيابية • اذ بينما يفلحها الفلاحون الهنود ، يفضل ملاكها من الاسبان الاقامة فى المدينة • ويبدو أن الخطط الحضرية التى اعتمدت عليها المدن الاستعمارية منذ نشأتها قد أتاحت لها ــ فى فترة لاحقة ــ امكانيات الاتساع المكانى • اذ ما لبثت الشوارع المستقيمة أن ازدادت طولا ، كما ظهرت مجمعات سكنية تشبه فى خطتها الحضرية المجمعات السكنية القديمة[1] • كذلك فان الاهمية الكبيرة التى احتلها الميدان العام المحيط بالكاتدرائية والمبانى الحكومية كان لها أكبر الأثر فى تحديد النمط الايكولوجى لهذه المدن ، وبالتالى مواقع الاسواق والاسوار والمناطق السكنية • أما قطع أراضى البناء الكبيرة التى كانت تمنح لبعض الاشخاص المتميزين فقد ساعدت فى المدى القصير على تخفيف حدة الكثافة السكانية الحضرية لهذه المدن • وبتقسيم هذه القطع واعادة بنائها بدأت الكثافة السكانية فى الارتفاع كما طرأت تغيرات هامة

---

(1) Ralph. A. Gakenheimer; «The Peruvian City of the Sixteenth Century»; in G. H. Beyer (ed.) The Urban Explosion in Latin America; Cornell University Press; Ithaca; N. Y; 1967; p. 50.

على النمط الحضرى بوجه عام • ومع ذلك فاننا نجد هنا ضرورة للتمييز بين المدن الاسبانية والبرتغالية فى أمريكا اللاتينية • ففى البرازيل التى كانت مستعمرة برتغالية نجد عددا قليلا من المدن ، ذلك أن البرتغاليين ــ على خلاف الاسبان ــ قد اعتمدوا فى سيطرتهم الاستعمارية على الاسلوب الاقطاعى الزراعى ، مما أدى الى عدم اهتمامهم بتدعيم المدن القائمة أو اقامة مدن جديدة • لذلك قد لاتندهش كثيرا حينما نجد مدنا برازيلية مثل سانتوس وباهيا وريو دى جانيرو قد ظلت صغيرة الحجم ضعيفة البناء على طول الفترة الاستعمارية بأكملها • أما الموانى « الطبيعية » الضخمة التى طورها البرتغاليون فكانت مقصورة على السفن التجارية البرتغالية • ومن هذه الزاوية يمكننا فهم الدور المحدود الذى لعبته التجارة فى نمو هذه الموانى •

ومن المحتمل أن تكون السياسة الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية من بين الاسباب الهامة التى أدت الى ظهور اختلافات ايكولوجية واضحة بين المدن فى كل من أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية[1] • ومع ذلك نجد ليو شنور Leo schnore يؤكد فى دراسة هامة له أن أسباب هذه الاختلافات أكبر بكثير من « السياسة الايبيرية » ازاء مستعمرات أمريكا اللاتينية ، ذلك أن النمط الحضرى اللاتينى التقليدى قد ظهر فى مدن العالم الجديد قبل الغزو الاسبانى • ولكى يدلل ليوشنور على وجهة نظره ، نجده يستشهد ببعض الشواهد الاركيولوجية التى تؤكد أن الناس فى حضارتى الأزتيك Aztec والمايا Maya كانوا يعيشون فى مراكز حضرية كبيرة الحجم[2] • ويبدو أن عددا كبيرا من الباحثين المعاصرين قد أصبحوا يميلون الى تأييد هذه القضية • ويكفى أن نستشهد على ذلك بالنص التالى :

---

(1) George A. Theodorson (ed.) Studies in Human Ecology; Row; Peterson; Evanston; III; 1961; pp. 326-327.

(2) Leo F. Schnore; «On the Spatial Structure of Cities in the Two Americas»; in P. Hauser and Leo Schnore (eds.); The Study of Urbanization; N. Y; 1965; p. 369.

« عرفت أمريكا اللاتينية المراكز الحضرية التى تؤدى وظائف مدنية ودينية قبل الغزو الاستعمارى لهـا بفترة طويلة • فالوصف التقليدى لمدينـة اليوكاتان Yucatán- يصدق على المـدن القديمـة التى شهدتها منطقة أمريكا الوسطى منذ فترة بعيدة • وقبل وصول الاسبان الى هذه المنطقة أعتاد السكان الوطنيون على الاقامة فى المدن التى لم تكن تخلو من ملامح التخطيط الحضرى المبكر • ففى وسط المدينة توجد المعابد التى تلفهـا ساحات ضخمة • وعلى مقربة من ذلك تقع مساكن الاغنياء ورجال الدين ، ثم تأتى مساكن الاعيان وذوى النفوذ • أما مساكن الطبقة الدنيا فتقع على أطراف المدينة من مختلف اتجاهاتها »[1] • وتتفق هذه الشواهد مع النموذج النظرى الذى صاغه جدعون جوبرج Sjoberg لتفسير « مـدن ما قبل الصناعة » • فطبقا لهذا النموذج تقع المبانى الحكومية الهـامة وأماكن العبادة فى وسط المدينة • كما أن الاقامة فى وسط المدينة هى من رموز المكانة الاجتماعية • فالصفوات السياسية والدينية والتجارية تميل الى العيش فى قلب المدينة ، بينما لا تجد الجماهير الفقيرة-الا الاطراف فتتخذ منهـا موطنا لها[2] • وعلى الرغم من تحفظاتنا على بعض التعميمات التى تناولت « مدن ما قبل الصناعة » ، الا أن السمة المشتركة بينها هى أقامة الصفوات الدينية والسياسية والاقتصـادية فى مناطقها المركزية •اذ أن العيش فى قلب المدينة كان مقصورا على هذه الصفوات • وهناك مبررات قوية تدعم ذلك • فقبل ظهور التكنولوجيا الحديثة وتوطن بعض الصناعات داخل وسط المدينة وما استتبع ذلك من ضوضاء وتلوث وازدحام ، قبل ذلك كله كانت الاقامة فى قلب المدينة تنطوى على ميزات كبيرة حصلت عليها هذه الصفوات وحدها • ويكاد يصدق ذلك على كل مدن أمريكا الشمالية أيضا خلال الفترة

---

(1) E. M. Shook and T. Proskouriakoff; «Settlement Patterns in Meso-America and the Sequency in the Guatemalan Highlands»; in G. Willey (ed.); Prehistoric Settlement Patterns in the New World; N. Y; 1956; pp. 93-100.

(2) Gideon Sjoberg; The Preindustrial City : Past and Present; Free Press; Glencoe; III; 1960; pp. 96-98.

السابقة على الثورة الصناعية • ولقد أوضح هيبيرل Heberle أن المدن الامريكية الصغيرة الجنوبية قد شهدت تحولات هامة بسبب التصنيع • فقبل ادخال الصناعات المختلفة ظلت العائلات المرموقة تقيم بالقرب من قلب المدينة ، لكنها ما لبثت أن اتجهت الى الاطراف والضواحى حينما وجدت أنها قد فقدت بالتصنيع كثيرا من المزايا التى كانت تتمتع بها [1] • ويمكننا أن نجد تأييدا اضافيا لذلك فى دراسة ليوشنور Leo schnore التى أشرنا إليها قبل قليل • فمن خلال تحليله لسبع دراسات هامة تناولت مدن أمريكا اللاتينية خلال الفترة الاستعمارية ، توصل الى نتيجة مؤداها أن نمط المدينة ذات الساحة الكبيرة المحيطة بالكاتدرائية والمبانى الهامة كان هو النمط الشائع فى مختلف أنحاء أمريكا اللاتينية • كما أن امكانيات نمو هذه المدن كانت متاحة بفضل مرونة خططها الحضرية والتى لم تكن تختلف كثيرا عن قريناتها فى أمريكا الشمالية • على أن تقدم وسائل المواصلات والنقل واتساع نطاق الاسواق قد أديا بالطبقة العليا الى الانتقال الى أطراف المدينة ، تاركة الوسط لاقامة الطبقة الدنيا بعد أن أصابه التخلف الحضرى • وعلى الرغم من ارتفاع قيمة أراضى وسط المدينة ، الا أنها قد ظلت محافظة على تخلفها التقليدى[2] ، وتلك سمة تكاد تميز كثيرا من مدن الدول النامية •

وببداية القرن التاسع بدأت المدن فى أمريكا اللاتينية تتخذ وضعا متميزا • أما التفسير التاريخى لذلك فيعتمد على عدد من العوامل الهامة • فمن الناحية السياسية بدأت المدن تلعب دورا سياسيا نشطا وعلى الاخص العواصم القومية ، حيث أصبحت بمثابة علامات واضحة على الاستقلال السياسى والكرامة الوطنية • ومن الناحية التجارية بدأت المدن تحتل

---

(1) Rudolf Heberle. «Social Consequences of the Industrialization of Southern Cities»; Social Forces; 1956; pp. 34-35.

(2) Leo Schnore; «On the Spatial Structure of....» op. cit; p. 373.

مكانة عالية • فبخروج الاستعمار الاسبانى والبرتغالى ، بدأت المدن تحقق انتعاشا تجاريا مما أدى الى تكون جماعات من التجار الوطنيين المتحررين من القيود الاستعمارية • وفضلا عن ذلك بدأت « الارستقراطية الزراعية الوطنية » تتجه الى الاقامة الحضرية وتشارك بعد ذلك فى كثير من النشاطات التجارية والمالية • ومن الناحية الاقتصادية والتكنولوجية طرأت تغيرات حضرية هامة • فلقد سيطرت العقلية « الليبرالية » « التجارية » على مدن أمريكا اللاتينية ، وبدأت التكنولوجيا تدخل المجالات الصناعية والزراعية[1] • وأحد النتائج المترتبة على ذلك زيادة الانتاج الزراعى وتحقيق الفائض الاقتصادى ، مما كان له أكبر الاثر فى انتعاش هذه المدن • ويمكننا أن نضيف الى ذلك الهجرة الريفية ــ الحضرية التى شهدتها أمريكا اللاتينية منذ بداية القرن التاسع عشر • فبينما كانت نسبة سكان المدن فى أمريكا اللاتينية ٢٩٪ فى سنة ١٧٥٩ نجدها ترتفع الى ٣٤٪ فى سنة ١٨٠٠ • وبحصول دول أمريكا اللاتينية على استقلالها السياسى فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، بدأت المدن تتحرر من القيود الاستعمارية التى فرضت عليها ، والتى حرمتها بالتالى من فرص النمو السكانى وتعدد الوظائف الحضرية[2] •

وبرغم كل ما سبق فان التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى شهدتها مدن أمريكا اللاتينية خلال العقود الاولى من القرن التاسع عشر كانت محدودة للغاية • فعقب الاستقلال مرت دول أمريكا اللاتينية بفترة انتقالية حاولت خلالها تنظيم قواها البشرية وحصر مواردها الطبيعية • كانت فترة استرخاء لا استنفار • على أن ظهور الوحدات السياسية القومية قد شجع على نمو العواصم السياسية المحلية لتلعب

---

(1) R. M. Morse; From Commnuity to Metropolis : A Biography of Sao Paulo; Brazil; Gainesville; 1958.

(2) John Durand and C. Pelaez; «Patterns of Urbanization in Latin America»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; op. cit; p. 198.

أدوارا جديدة تختلف عن تلك التى كانت تؤديها خلال الحقبة الاستعمارية ، وواقع الأمر أن مدن أمريكا اللاتينية لم تشهد خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر نموا ملحوظا فى حجم الطبقة الوسطى الحضرية . فلقد ظل التجار ورجال الاعمال يحتلون — فى نظر الافراد العاديين — مكانة متدنية نسبيا داخل البناء الطبقى ، ذلك أن ملكية الاراضى الزراعية قد ظلت من أهم مؤشرات الانتماء الى الطبقة العليا . فمهما ارتفع الدخل الذى قد يحققه الشخص من التجارة أو الصناعة الحرفية ، فانه لايكفى وحده للانتماء الى الطبقة العليا[1] . ومن هنا يبدو الاختلاف واضح بين مدن أمريكا الجنوبية ومدن أمريكا الشمالية خلال تلك الفترة . فبينما ظلت الاولى حريصة على تدعيم مكانتها السياسية أبدت الثانية اهتماما فائقا بتثبيت وظيفتها الاقتصادية . وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأت مدن أمريكا اللاتينية تشهد نموا ملحوظا فى الطبقة الوسطى بسبب التغيرات التكنولوجية التى طرأت على مجال النقل واتساع نطاق الهجرة الخارجية اليها . وبفضل السكك الحديدية والطرق الجديدة ، نمت مناطق حضرية لم تكن معروفة من قبل . ومن خلال المهاجرين الأوربيين الى مدن أمريكا اللاتينية (فى أواخر القرن التاسع عشر) عرفت المدن نظما اجتماعية حضرية جديدة تماما . ونضيف الى ذلك كله ظهور الجماعات الفنية العليا (كالاطباء ، والمهندسين ، والمدرسين ، والمحاسبين) التى شكلت القطاع الاساسى من الطبقة الوسطى الحضرية . بيد أن هذه الجماعات لم تلعب دورا حاسما فى التنمية الاقتصادية لمدن أمريكا اللاتينية ، اذ أنها ظلت حريصة كل الحرص على التحالف والارتباط بالطبقة العليا . ومرة أخرى نلمس اختلافا واضحا بين مدن أمريكا اللاتينية ومدن أمريكا الشمالية[2] . ففى الأخيرة لعبت الطبقة الوسطى أدوارا اقتصادية

---

(1) Ralph Gakenheimer; «The Peruvian City of the Sixteenth Century»; op. cit; p. 63.

(2) Leo Schnore; «On the Spatial Structure of Cities in the Two Americas»; op. cit.

وسياسية بالغة الاهمية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، بينما لانجد نظيرا لهذا الموقف فى أمريكا اللاتينية •

وخلال القرن العشرين شهدت أمريكا اللاتينية نمـوا حضريا كبيرا ، حتى أن بعض الدارسين قد ذهبوا الى أن معدل التحضر (نسـبة الذين يعيشون فى مدن يزيد عدد سكانها عن ٢٠ر٠٠٠ بالنسبة لبقية السكان) فى أمريكا اللاتينية هو واحد من أعلى المعدلات التى يشهدها عالمنا المعـاصر • فمعدل التحضر فى أمريكا اللاتينية أعلى من قرينه فى أفريقيا أو آسيا أو بعض مناطق جنوب أوربا ، على الرغم من أن معدل النمو الاقتصادى اقل فى أمريكا اللاتينية منه فى مناطق جنوب أوربا • كذلك فان معدل التحضر فى أمريكا اللاتينية لايقل كثيرا عن نظيره فى الاتحاد السوفيتى أو وسط أوربا • وبعبارة أخرى فان معدل التحضر فى أمريكا اللاتينية يلى مباشرة معدلات التحضر فى كل من أمريكا الشمالية وشمال غرب أوربا وأستراليا ونيوزيلندة• غير أن دول أمريكا اللاتينية ذاتها تتفاوت فيما بينها فيما يتعلق بمعدلات التحضر • فاذا ما اعتمدنا على نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠ر٠٠٠ نسمة ، لاحظنا مدى واسعا من التفاوت بين دول أمريكا اللاتينية • فبينما تصل هذه النسبة فى الارجنتين الى ٥ر٥٧٪ ، تنخفض فى هندوراس لتصل الى ٦ر١١٪ (خلال عام ١٩٦١) ، ثم تزداد انخفاضا فى هايتى لتصل الى ١ر٥٪ (خلال عام ١٩٥٠) • وفى المناطق الجنوبيـة من أمريكا اللاتينية (الارجنتين وتشيلى وأرجواى) نجد واحدا من أعلى معدلات التحضر فى العالم • اذ يعيش أكثر من نصف سكان هذه الدول فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠ر٠٠٠ نسمة • وفى فنزويلا وكوبا نجد معدلين عاليين من التحضر • اذ بلغ المعدل فى فنزويلا ٢ر٤٧٪ طبقا لتعداد ١٩٦١ ، بينما وصل فى كوبا الى ٥ر٣٥٪ فى سنة ١٩٥٣ • وفى البرازيل كان معـدل التحضر ١ر٢٨٪ فى سنة ١٩٦٠ فى مقابل ٦ر٢٩٪ بالنسبة للمكسيك خلال نفس العام • والملاحظ أن معدلات التحضر فى أمريكا اللاتينية بوجه عام تفوق معدلات النمو الاقتصادى فيها[1] • وباستخـدام بعض المؤشرات

(1) J. Durand and C. Palaez; «Patterns of Urbanization in Latin America»; in Gerald Breese (ed.); The City in Newly Developing Countries; op. cit: p. 172.

الاحصائية مثل نسبة العاملين فى النشاطات غير الزراعية ، ومتوسط الدخل الفردى ، ونسبة التعليم ، نلمس تفاوتا ملحوظا بين ارتفاع معدلات التحضر وانخفاض نسب هذه المؤشرات الاحصائية •

واذا ما تناولنا نسبة سكان أمريكا اللاتينية الذين يعيشون فى مدن كبيرة يزيد عددها عن ١٠٠ر٠٠٠ نسمة ، لاحظنا انخفاضا ملحوظا فى هذه النسبة اذا ما قورنت بنظيرتها فى بعض مناطق العالم[1] • ففى سنة ١٩٦٠ بلغت هذه النسبة فى الارجنتين ٥ر٤٥٪ ، وفى أرجواى ٩ر٤٥٪ (حيث يعيش معظم السكان الحضريين فى مدينة مونتيفديو) وفى تشيلى ٣ر٣٣٪ فى مقابل ٩ر٢٩٪ فى فنزويلا • وعلى أية حال فان المدن الكبرى فى أمريكا اللاتينية تكاد تماثل فى أحجامها المدن الكبرى فى الدول الصناعية كبريطانيا وألمانيا الغربية • وفى أمريكا اللاتينية نجد عشرة مدن رئيسية مليونية يعيش فيها حوالى ٢٥ مليون نسمة أو حوالى ١٢٪ من مجموع سكان القارة • ويبدو أن النمط الاساسى للتحضر فى دول أمريكا اللاتينية يتمثل فى زيادة سكان المدن الكبرى أو العواصم السياسية • فمن بين دول أمريكا اللاتينية نجد ستة عشر منها تشهد تركزا سكانيا واضحا فى مدنها الكبرى أو عواصمها السياسية • ففى تشيلى ــ مثلا ــ نجد ٣ر٤٧٪ من مجموع السكان يعيشون فى « سنتياجو الكبرى » (١٩٦٠) • وهناك حالات متطرفة من التركز الحضرى • ففى جامايكا وجواتيمالا وهايتى يعيش أكثر من ٨٠٪ من سكان هذه الدول فى عواصمها السياسية[2] • والواقع أن هذا النمط من التحضر لايكاد يميز دول أمريكا اللاتينية وحدها ، اذ باستطاعتنا أن نلمسه

---

(1) United Nations Population Branch; «Demographic Aspects of Urbanization»; in P. Hauser (ed.) Urbanization in Latin America; Paris; UNESCO; 1961.

(2) J. Durand and C. Palaez; «Patterns of Urbanization in Latin America»; in Gerald Breese (ed.) op. cit; p. 174.

فى كثير من الدول الافريقية والآسيوية على نحـو ما سنرى فى مواضـع لاحقة • وتشير بعض الدراسات السكانية الحديثة الى أن معـدل التحضر فى أمريكا اللاتينية بوجه عام قد وصـل فى سنة ١٩٧٥ الى ٥٤٪ ، وأنه سيواصل ارتفاعه بانتظام حتى نهاية هذا القرن • وحتى سنة ١٩٣٠ لم يكن هناك فى أمريكا اللاتينية سـوى مدينة مليونية واحـدة هى بيونس أريرس ، ثم ما لبثت أن لحقتها ميكسيكوسيتى وريو دى جانيرو وساو باولو• أما هافانا وليما وسنتياجو فقد عدت كل منهما المليون نسمة فى سنة ١٩٠٥ • وفى سنة ١٩٦٠ وصلت كل من بوجوتا وكاراكاس ومونتفيديو الى مرتبة المدن المليونية • واذا كانت هذه المدن المليونية قد ضمت فى سـنة ١٩٦٠ حوالى ٢٧ مليون نسمة ، فانها قد أصبحت تضم فى سنة ١٩٨٠ حوالى ٩٠ مليون نسمة[1]

وتسهم الهجرة الريفية ــ الحضرية بنصيب كبير فى زيادة أحجـام مدن أمريكا اللاتينية بوجه عام ، على الرغم من أننـا قد نجـد بعض الاختلافات الملحوظة بين الدول فى هذا المجـال • ولقد أوضحت بعض الدراسات المعاصرة أن معدلات الهجرة الى مدن أمريكا اللاتينية تفوق بكثير امكانياتها الاقتصادية ، حيث لاتزال بناءات هذه المدن تفتقر الى الدعائم الصناعية التى تمكنها من استيعاب هؤلاء المهاجرين • وفضلا عن ذلك فان الهياكل الاساسية لهذه المدن لاتسمح بمواجهة نمو سكانى حضرى واسع النطاق • ولعل أحد النتائج الهامة المترتبة على ذلك ظهور ونمـو الاحيـاء المتخلفة بكل أنماطها فى معظم المدن الكبرى على نحو ما سنرى بعد قليل • كذلك لوحظ أن هذه المدن مانزال تفتقد الوسائل والاسـاليب التى تضمن تكيف المهاجرين مع الحياة الحضرية الجديدة ، مما يؤدى الى ظهور ثقافات فرعية متباينة ومتعارضة مع الثقافة الحضرية الاساسية • وعند تفسـير الهجرة الريفية ــ الحضرية فى أمريكا اللاتينية قد يكون من المفيد استخدام

---

(1) W. Rycroft and M. Clammer; A Study of Urbanization; in Latin America; N. Y; 1962.

مفهومى « العوامل الطاردة » « والعوامل الجاذبة » • وعلى الرغم من ذلك فلقد أوضح جيرمانى Germani أن « العوامل الجاذبة » (المتعلقة أساسا بالمدن) لاتلعب الدور الحاسم فى زيادة معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية ، كما أشار الى أنه لم يجد ارتباطا ملحوظا بين العوامل الطاردة (المتعلقة أساسا بالفقر الريفى) والاتجاه نحو الهجرة الى المدن • وبدلا من ذلك نجد جيرمانى يؤكد « أن الهجرة الريفية ــ الحضرية » ليست مجرد « تعبير ديموجرافى » عن « ضغوط اقتصادية » ، انها تعبير عن «تغير عقلى» • بعبارة أخرى فان هجرة الريفيين الى المدن هى بديل عن « الثورة الاجتماعية »[1] • أما مارشال ولف Wolfe فلقد حذر من المبالغة فى الاعتقاد بان المدن الكبرى تجذب اليها المهاجرين الريفيين فى أمريكا اللاتينية ، ذلك أن « العوامل الطاردة » فى المناطق الريفية هى التى تلعب الدور الاكبر فى زيادة معدلات الهجرة الى هذه المدن • فمعظم المهاجرين لايجدون عملا زراعيا بسبب زيادة استخدام التكنولوجيا الزراعية المتقدمة، مما يؤدى الى ظهور فائض سكانى ريفى • كذلك فان أصحاب الملكيات الزراعية المتوسطة قد بدأوا يفضلون الاستعانة بالعمال الزراعيين الموسميين ، مما أسهم بدوره فى ظهور مشكلة البطالة الموسمية الريفية • وأخيرا فان المدن الصغيرة فى أمريكا اللاتينية مانزال مدن « تقزمية » تعجز ــ فى معظم الاحيان ــ عن القيام بدور قيادى بالنسبة للمناطق الريفية المحيطة بها[2] •

وتميل الدراسات المعنية بالتحضر فى دول أمريكا اللاتينية الى تأكيد الدور الذى تلعبه الهجرة الريفية ــ الحضرية فى زيادة نسبة العاملين فى القطاع الثالث « الخدمات الحضرية » • ذلك أن معدل العمالة الحضرية فى

---

(1) R. Morse; «Recent Research on Latin American Urbanization in Gerald Breese (ed.); op. cit; p. 483.

(2) Marshall Wolfe; «Some Implications of Recent Changes in Urban and Rural Settlement Patterns in Latin America»; U. N. World Population Conference; 1965 (A.8/1/E66).

قطاع الخدمات الحضرية يفوق معدل العمالة فى القطاع الثانى (الصناعة) • ويكاد يكون هذا النمط من العمالة أحد العناصر الاساسية التى تميز مدن أمريكا اللاتينية عن نظيراتها فى أمريكا الشمالية • ولقد حاول بازانيلا Bazzanella التحقق من صدق هذه القضية ، فقسم مناطق البرازيل الى ثلاثة مناطق طبقا لمستوى التصنيع ومعدل التحضر فيها هى : المتقدمة ، والوسيطة ، والمتخلفة • ففيما يتعلق بمعدل التحضر ، اتضح أن المناطق الثلاثة قد كشفت عن تقارب ملحوظ بينها (٣ر٥٠٪ و ١ر٤٦٪ و ٦ر٤٧٪ على التوالى) ، بينما لم تتضح فروق كبيرة بينها فيما يتعلق بنسب العاملين الجـــدد فى الصناعة • ومعنى ذلك أن معدلات التحضر تميل الى التقارب الشـــديد فى المناطق الحضرية المتباينة من البرازيل ، وأن نمو قطاع الخدمات يكاد يكون عامل مصاحب للتحضر[1] • وربما كانت أهم انجازات بازانيلا فى هـــذه الدراسة ربطة الوثيق بين ظاهرتى التضخم الحضرى overurbanization والتضخم الريفى overruralization فى دولة أمريكية لاتينية كبرى كالبرازيل• وفى تحليل آخر للجوانب السكانية الحضرية فى البرازيل ، أوضح سلســـو فيرتادو Furtado أن معدل النمو السكانى السنوى فى البرازيل خـــلال عقد الخمسينيات قد بلغ ٢ر٣٪ ، بينما ارتفع معدل النمو الحضرى السنوى خلال نفس الفترة ليصل الى ٦٪ • وبسبب زيادة استخدام التكنولوجيا الصناعية ، فان القوة العاملة فى الصناعة لم تزد الا بنسبة ٨ر٢٪ فى مقابل ٥ر٣٪ فى الزراعة [2] •

وباستثناء الاكوادور وكولومبيا وربما البرازيل ، تكاد تعرف معظم دول أمريكا اللاتينية « المدينة الاولى » primate city ، ذلك أن هناك فارقا هائلا بين « المدينة الاولى » وغيرها من المدن الاقليمية ســـواء من حيث

---

(1) R. Morse; «Recent Research on Latin American Urbanization»; op. cit; p. 485.

(2) S. Rottenberg; «Note on the Economics of Urbanization in Latin America»; U N document E/CN. 12 URB 6; 1965.

الحجم السكانى أو الوظائف الحضرية • وتشير كل الشواهد المتاحة الى أن « المدن الاولى » فى أمريكا اللاتينية (ربما باستثناء المكسيك وكولومبيا) تكاد تجذب معظم المهاجرين الريفيين وتستأثر بمعظم الاستثمارات الاجتماعية • وقد نستشهد على ذلك بمدينة « سنتياجو الكبرى » • ففى سنة ١٩٣٠ كان عدد سكانها حوالى ٨٠٠ر٠٠٠ نسمة ، ثم ما لبث أن ارتفع فى سنة ١٩٦٥ الى ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ نسمة • وتكاد تضم « سنتياجو الكبرى » ٣٠٪ من مجموع سكان تشيلى • أما المدينة التالية على ذلك فى تشيلى فلم يزد عدد سكانها عن ٣٦٨ر٣٣٢ نسمة طبقا لتعداد سنة ١٩٦٠ • وعلى الرغم من أن الحكومة التشيلية قد وقفت موقفا حازما ضد هذا التضخم السكانى العاصمى وحرمت بذلك اقامة كثير من المشروعات الصناعية داخل العاصمة ، الا أن ذلك لم يمنع المهاجرين عن التدفق اليها[1] • وعلى الرغم من أن بعض الدارسين يصفون « المدن الاولى » بالاستغلال الحضرى واعاقة نمو المدن الاقليمية الاخرى ، الا أن ذلك قد لا يصدق فى بعض الاحيان على بعض دول أمريكا اللاتينية خاصة الصغيرة منها • ففى أرجواى — مثلا — أتاح التركز الحضرى فى العاصمة فرصة نمو المشروعات الصناعية والافادة من التكنولوجيا الحديثة وتطوير الهياكل الاساسية الحضرية ، حتى أن بعض الباحثين قد ذهبوا الى أن كل دولة أرجواى ما هى الا عاصمتها مونتفيديو ، وأن الدولة بأكملها قد أصبحت تشكل بيئة ريفية — حضرية لا تنطوى على تفاضل بقدر ما تنطوى على تكامل • على أن أرجواى وغيرها من الدول الصغيرة الفقيرة تشكل استثناءا من قاعدة عامة • ذلك أن « المدن الاولى » فى معظم دول أمريكا اللاتينية تعوق بالفعل نمو المدن الاقليمية الصغرى ، وتحول دون تنمية المناطق الريفية المتناثرة • والمعضلة الاساسية التى تواجهها هذه الدول هى استمرار نمو « المدن الاولى » برغم التطورات الايجابية التى طرأت على

---

(1) R. Morse; «Latin American Cities : Aspects of Function and Structure»; in J. Friedmann et al (eds). Regional Development and Planning; Combridge; 1964; 361-381.

المناطق الريفية[1] • ويعتقد بعض المخططين الحضريين فى أمريكا اللاتينية أن تكاليف تحديث القطاع الزراعى تفوق بكثير تحديث القطاع الصناعى ــ الحضرى • فعلى سبيل المثال نجد أن تكاليف كهربة الريف تفوق بكثير تكاليف كهربة الاحياء المختلفة داخل المدن • وبسبب الاضطرابات السياسية الحضرية فى كثير من دول أمريكا اللاتينية بدأت بعض الحكومات تولى التنمية الحضرية اهتماما كبيرا حتى ولو كان ذلك على حساب التنمية الريفية •

وتشترك مدن أمريكا اللاتينية مع بقية مدن العالم الثالث فى جذب نسبة كبيرة من المهاجرين الريفيين اليها • فطبقا للتعداد الكولومبى الذى أجرى فى سنة ١٩٦٤ بلغت نسبة المهاجرين فى مدينة بوجوتا أكثر من نصف سكانها ، كما اتضح أن حوالى نصف سكان مدينة سنتياجو من المهاجرين الريفيين • ويبدو أن الهجرة الريفية ــ الحضرية فى أمريكا اللاتينية تتخذ الطابع الدائم أكثر مما تتخذ الطابع الموسمى كما هو الحال فى بعض الدول الافريقية[2] • كذلك فان معظم المهاجرين الريفيين الى مدن أمريكا اللاتينية ينتمون الى الفئات العمرية الشابة ، ذلك أن كبار السن من القرويين يفضلون البقاء فى القرية وتجنب « المغامرة الحضرية » • واذا ما أخذنا فى اعتبارنا هذه الهجرة الريفية ــ الحضرية « الشابة » وأضفنا اليها مشكلة الانفجار السكانى بوجه عام ، لاتضح لنا أن نسبة كبار السن فى هذه المدن محدودة للغاية ، مما يعنى خللا فى البناء العمرى « الحضرى » • ففى معظم هذه المدن نجد ٤٠٪ من مجموع سكانها تقل أعمارهم عن خمسة عشر عاما • وفضلا عن ذلك لوحظ أن التوزيع النوعى (ذكور ــ اناث) فى مدن أمريكا اللاتينية يختلف اختلافا ملحوظا عن قرينه فى مدن العالم الثالث • ففى

---

(1) S. Barraclough; «Rural Development and Employment Prospects in Latin America»; in A. Field (ed.); City and Country in the Third World; Cambridge; Mass; 1970; p. 106.

(2) ECLA; The Social Development of Latin America in the Postwar Periad; EICN. 12/660; May 11; 1963.

الاخيرة نجد زيادة محلوظة فى نسبة الذكور فى مقابل انخفاض ملحوظ في نسبة الاناث ، بينما نجد فى الاولى (مدن أمريكا اللاتينية) زيادة ملموسة فى نسبة الاناث فى مقابل انخفاض ملموس فى نسبة الذكور • ومن هـذه الزاوية نجد مدن أمريكا الجنوبية تشبه الى حد كبير مدن العالم الصناعى المتقدم[١] • وعلى الرغم من اجماع الباحثين على ارتفاع نسبة الاناث فى مدن أمريكا اللاتينية ، الا أننا لانجد تفسيرات مقنعة لذلك • غير أننى أميل الى تفسير ذلك فى ضوء ارتفاع معدلات التحضر والنمـو الاقتصادى فى مدن أمريكا اللاتينية اذا ما قورنت بقريناتها فى بقية دول العالم الثالث •

وتعانى مدن أمريكا اللاتينية من تضخم أحياء واضعى اليد squatter settlements التى تضـم أعـدادا كبيرة من المهـاجرين الريفيين ، حتى أن بعض الباحثين قد ذهبوا الى أن هذه الاحياء قد أصبحت القاسم المشترك الاعظم الذى يميز مدن هذه القارة[٢] • وغالبا ما تضم هذه الاحياء سكانا لاينتمون الى البروليتاريا الصناعية الحضرية المنتجة بقدر ما ينتمون الى « حثالة البروليتاريا » lumpenproletariat اذا ما استخدمنا تعبير فرانتز فانون Fanon • وتختلف مسميات أحياء واضعى اليد باختلاف دول أمريكا اللاتينية ، وان كانت خصائصها تكاد تكون واحدة فى معظمها • ويصف بعض الدارسين سـكان أحياء واضعى اليـد بالهامشية • فهم ـ جغرافيا ـ يعيشون على أطراف المدينة ، وهم ـ وظيفيا ـ محرومون من الخدمات الحضرية ، وهم ـ اجتماعيا ونفسيا واقتصاديا ـ بعيدون عن الحياة الحضرية بوجه عام • وتتميز أحياء واضعى اليد فى مدن أمريكا اللاتينية ببعض الخصائص المشتركة • فهى أحياء سكنها أصحابها بوضـع اليد ، كما أنها تقع عادة على تخوم المدن • ولقد أوضحت بعض الدراسات الحـديثة أن تلك الاحياء ـ أو المدن ـ ليست نتيجة اختيارات فردية

(1) P. Hauser (ed.) Urbanization in Latin America; op. cit; 1961.

(2) Asael Hansen; «The Ecology of a Latin American City»; in E. B. Reuter (ed.) Race and Culture Contacts; New York; 1958; pp. 124-142.

عشوائية • فقد بدأت معظم تلك الاحياء تتكون عندما أخذ بعض الناس — الذين يعيشون فى أحد الاحياء المتخلفة فى المدينة الرئيسية — ينظمون صفوفهم ويتحركون كجماعة الى قطعة من الارض الفضاء التى قد تكون مملوكة للحكومة • وفى لمح البصر يظهر واضعو اليد على تلك الارض ، ويقسمونها الى قطع صغيرة ، ويقيمون فوقها مأوى لهم ، يبنونه من مواد مؤقتة وسريعة فى العادة • وقد تتمتع هذه الاحياء بحد أدنى من التنظيم ، مما يكفل اختيار ممثلين عنها للتعامل مع السلطات الحكومية أو مع أصحاب الارض • كما يتطلب الامر — عادة — وجود وسائل معينة لحفظ الامن الداخلى ، مما قد يفرض على القادمين الجدد الحصول أولا على إذن قبل الانضمام الى هذا المجتمع • وتفتقر مثل هذه الاحياء الى كثير من المرافق الحضرية كالماء والكهرباء والصرف الصحى • ومن الوظائف التى تضطلع بها هذه الأحياء محاولة ادخال تلك المرافق من السلطات البلدية التى غالبا ما تصر على رفض ذلك ، أو تفتقر الى الامكانيات اللازمة لتحقيقه • كذلك فان سكان أحياء واضعى اليد يبذلون جهودا كبيرة للحصول على اعتراف بالامر الواقع وعلى الاخص فيما يتعلق بملكية الارض • وما أن تقبل سلطات المدينة انشاء الطرق ورصفها ، حتى يؤخذ ذلك على أنه اعتراف بحقوق الملكية • عندئذ يبدأ سكان هذه الاحياء فى تشييد مبان أكثر ثباتا • وبمرور الوقت يفقد قادة الحى نفوذهم السياسى ، وذلك كلما ازداد الحى انصهارا فى مجتمع المدينة • كذلك أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن أحياء واضعى اليد قد تضم جمعيات أو نوادى ينتمى اليها أبناء قرى بعينها أو اقليم معين • وتتيح هذه الجمعيات فرصة لالتقاء المهاجرين ، كما تهيىء لهم بعض وسائل الترويح • ومن شأن ذلك أن يكفل قدرا من الامان الاجتماعى والعاطفى[1] •

---

(١) بيلز وهويجر ؛ مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، الجزء الثانى ، ترجمة محمد الجوهرى والسيد الحسينى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ص ٨٧٧ .

وتشير البيانات السكانية التى تتناول مدن أمريكا اللاتينية الى أن أحياء واضعى اليد قد تضخمت خلال السنوات الاخيرة حتى أصبحت تشكل أخطر مشكلة حضرية تواجهها القارة • ففى مدينة ليما كان عدد سكان أحياء واضعى اليد barriada فى سنة ١٩٥٨ حوالى ١٠٠ر٠٠٠ نسمة (١٠٪ من مجموع سكان المدينة ككل) ، ثم ارتفع هذا الرقم الى ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة فى سنة ١٩٦٤ (٢٠٪ من مجموع سكان المدينة) • وفى ريو دى جانيرو ارتفع عدد سكان أحياء واضعى اليد favelas من ٢٠٣ر٠٠٠ نسمة فى سنة ١٩٥٠ (٨ر٥٪ من مجموع سكان المدينة) الى ٦٠٠ر٠٠٠ نسمة فى سنة ١٩٦٤ (١٦٪ من مجموع سكان المدينة) • وفى سنتياجو بلغ عدد الاسر التى تعيش فى أحياء واضعى اليد callampa فى سنة ١٩٥٢ حوالى ١٢ر٥٠٢ أسرة • غير أن هذا الرقم قد ارتفع فقط الى ١٦ر٤٢٠ أسرة فى سنة ١٩٦١ بسبب الحملة التى قامت بها الحكومة التشيلية من أجل محاصرة هذه الاحياء والحد من نموها[١] وتوضح بعض الدراسات الحضرية أن أحياء واضعى اليد ما هى الا نمط من الاحياء المتخلفة المنتشرة فى مدن الدول النامية ، وأنها تجسد الظروف الحضرية القاسية فى دول أمريكا اللاتينية • ففى هذه الاحياء تنتشر الامراض ، وتزداد الامية ، وتشيع الجرائم ، ويتعمق التفكك الاجتماعى[٢] • وعلى الرغم مما قد يذهب اليه بعض الدارسين من أن هذه الأحياء تشكل « جيوبا ريفية » داخل المدن ، وأنها بذلك تتمتع بقدر كبير من الاستقرار الاجتماعى بسبب روابط الجيرة والقرابة التى تربط بين سكانها ، الا أن الدراسات الواقعية التى أجريت على هذه الاحياء تميل الى تأكيد طابع التفكك الاجتماعى الذى يسيطر عليها[٣] •

---

(1) ECLA; «Urbanization in Latin America; Results of a Field Survey of Living Conditions in an Urban Sector.»; E/CN. 12/662; 1963; pp. 5-7.

(2) James Morris; Cities; Harcourt Brace; N. Y; 1964; pp. 227.

(3) John Turner; «Squatter Settlements in Developing Countries; in D. Moynihan (ed.) Toward a National Urban Policy; Basic Books; N. Y; 1970; pp. 256-257.

ويبدو أن أحياء واضعى اليد تتشابه عموما مع الاحياء المتخلفة فيما يتعلق بالاصول الريفية للمهاجرين اليها • فلقد أوضح ليدز Leeds فى دراسة له على حوالى ثلاثمائة من الاحياء المتخلفة فى ريو دى جانـيرو أن معظم الدراسات تتناول المقيمين فى تلك الاحياء باعتبارهم مهـاجرين ريفيين استقروا بها ، ولكنهم لم يصبحوا بعد جزءا من المدينة • ويعتقد ليدز أن فهم الاحياء المتخلفة يتطلب التعرف على ظروف الحياة فيها والعـوامل المؤثرة فيها مثل : ملكية الارض ، وانواع الايجارات ، وظروف سـوق العمل ، وبناء الاجور ، والانماط البديلة للاسكان الرخيص ، ونظام النقل والمواصلات ، وتعصب الموظفين ضد سكان تلك الاحياء ، وطبيعة العلاقات والمنظمات الاجتماعية الداخلية ، والخدمات والاعمال التى يؤديها سكان هذه الاحياء للمجتمع الكبير ، ونسبتهم الى مجموع القوة العاملة[١] •

وهناك اعتقاد سائد لدى علماء الاجتماع الحضرى بأن أحياء واضعى اليد فى مدن أمريكا اللاتينية هى أحياء مؤقتة ، وأن معظم سكانها هم من المهاجرين الريفيين الجدد الذين لم يتمكنوا بعد من الحصول على وظائف دائمة • غير أن ما نلاحظه بالفعل قد لا يؤيد كثيرا هذا الاعتقاد • اذ أن هذه الاحياء قد وجدت لتظل قائمة ، وأنها تتخذ بمرور الايام وجودا دائما• كما أن سكان هذه الاحياء ليسوا بالضرورة من المهاجرين الريفيين بل قد ينتمى بعض منهم الى المدن أو المراكز الحضرية الصغيرة • ولقد أوضح أحد تقارير الامم المتحدة « أن وجود هذه الاحياء المؤقتة هو علامة على رفض سكان المدن لها »[٢] ، كما أشار أحد الدارسين الى أن هذه الاحياء المؤقتة ما هى الا ظواهر حضرية دائمة تضرب بجذورها فى أعماق البنـاء الاجتماعى ــ الاقتصادى » • ومن الصعب تفسير نشأة أحياء واضعى اليد ونموها فى مدن أمريـكا اللاتينية بمعـزل عن الظروف الاجتماعية

---

(1) A. Leeds (ed) Rio's Favelas; University of Texas Press; 1970.

(2) ECLA; «Urbanization in Latin America; op. cit; p. 15.

والاقتصادية التى مرت ــ وماتزال ــ بها خلال العقود الاخيرة على أقل تقدير • إذ أن ظهور هذه الاحياء هو نتيجة منطقية وحتمية لوجود قطاعين اقتصاديين متعارضين : الاول مستقر دائم ، والثانى قلق مؤقت • ومن الطبيعى أن يكون القطاع الاقتصادى الثانى من نصيب الهامشيين من سكان أحياء أو مدن واضعى اليد • وعلى الرغم من وضوح هذا التفسير الاقتصادى ، إلا أن بعضا من دارسى المدن فى أمريكا اللاتينية يفضلون مناقشة الاعراض دون التعرف على الاسباب • فبدلا من دراسة هذه الازدواجية الاقتصادية ، نجدهم يهتمون بدراسة النتائج الاجتماعية والثقافية « للهامشية الحضرية » بوجه عام • ولقد أوضحت بعض دراسات الهجرة الداخلية فى أمريكا اللاتينية أن أحد الاسباب القوية لزيادة معدلاتها هو عدم قدرة « القطاع الاقتصادى المستقر الدائم » على النمو والاتساع، وبالتالى اتاحة مزيد من فرص العمالة للسكان الحضريين الهامشيين • وينطبق ذلك بصفة خاصة على القطاع الصناعى الحضرى ، ذلك أن هذا القطاع مايزال محدود التأثير فى المدن الكبرى ، بينما يكاد ينعدم تأثيره فى المدن الصغرى • وطالما أن قطاعى الزراعة والصناعة لاينموان بالقدر الذى يسمح باستيعاب العمالة الريفية والحضرية ، فان القطاع الثالث (الخدمات) يبدو الامل الوحيد لامتصاص هذه العمالة[1] • ونظرا لافتقار هذه العمالة الريفية والحضرية الزائدة الى المؤهلات الفنية اللازمة للاعمال الصناعية ، فانها تضطر الى الالتحاق بالاعمال اليدوية فى المشروعات الصغيرة أو أعمال الخدمات أو البيع المتجول • ومن وجهة النظر الماركسية «المتزمتة» قد يبدو العمال الذين يلتحقون بهذه الأعمال متمتعين بقدر من حرية العمل والاستقرار لا يتمتع بها قرناؤهم الذين يعملون فى مهن دائمة منتظمة • غير أن ذلك لايجد سندا واقعيا • اذ أن هؤلاء العمال يفتقرون الى أقل قدر من رؤوس الاموال حتى أن وضعهم الاقتصادى قد يكون أسوء بكثير من

---

(1) ECLA; «The Social Development of Latin America in the Postwar Period»; op. cit; pp. 63-65.

قرنائهم الفلاحين[١] • والواقع أن أحياء واضعى اليد ليست مقصورة على العمال الهامشيين • فلقد أوضحت دراسة أجرتها الامم المتحدة أن ٤٢٪ من العمال الصناعيين فى مدينة سنتياجو يعيشون فى أحياء واضعى اليد ، وأن الذين لا يرتبطون بالعمل الصناعى المنتظم من سكان هذه الاحياء يفتقدون الامان المهنى ويضطرون الى الانتقال من عمل لآخر بحثا عن ظروف مهنية واقتصادية أفضل[٢] • ويقدر بعض الدارسين فترات البطالة التى يتعرض لها سكان هذه الاحياء بستة شهور سنويا • ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى انخفاض ملحوظ فى متوسط الدخل الفردى ، ثم انخفاض لاحق فى الانفاق على المقومات الاساسية للحياة كالغذاء والملبس •

وقد يبدو فقراء المدن أقل خضوعا لاحتكار السوق اذا ما قورنوا بقرنائهم من فقراء الريف بسبب اتساع نطاق السوق الحضرى ووجود منافسة كبيرة بين القوى الاحتكارية المختلفة • ومع ذلك فلقد لوحظ أن مدن أمريكا اللاتينية تخضع عموما لسيطرة الاحتكارات التجارية مما يؤدى الى ظهور أزمات تموينية حادة ، ونمو السوق السوداء ، والمضاربة على أسعار السلع الاساسية • ومن الطبيعى أن يمتص ذلك كله جزءا كبيرا من دخول هؤلاء المستهلكين الحضريين الفقراء • ومن الواضح ان السكان الحضريين الهامشيين هم أكثر جماعات المدن تأثرا بهذه الاضطرابات الاقتصادية • وفضلا عن ذلك أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن أحياء واضعى اليد تكاد تفتقر الى التخطيط الحضرى ومقومات الحياة الحديثة بوجه عام • فمعظمها لا يعرف أنابيب المياه الجارية ، وأساليب الصرف الصحى ، وعربات جمع القمامة ، والطرق المرصوفة ، فضلا عن المدارس والمستشفيات ونقاط الشرطة • والواقع أن نمو أحياء واضعى اليد فى مدن

---

(1) Andre Frank; «Instability and Integration in Urban Latin America»; in Andre Frank; Latin America : Underdevelopment or Revolution; Monthly Review Press; N. Y; 1969; p. 278.

(2) ECLA; «The Social Development of .... op. cit; p. 28.

أمريكا اللاتينية يحتم ضرورة تزويدها بهذه الخدمات الحضرية • ففى سنتياجو ــ مثلا ــ لوحظ أن ٥١٪ من سكان هذه الاحياء تقل أعمارهم عن خمسة عشر عاما ، بينما لاتكاد الخدمات التعليمية المتاحة تكفى أكثر من عشر هذه النسبة المئوية[١] •

على أن القضية التى تبدو الآن أكثر أهمية والحاحا تتصل بموقع « الهامشيين الحضريين » داخل مدن أمريكا اللاتينية ، والدور السياسى الذى يمكن أن يلعبونه فى تلك القارة القلقة • فعلى الرغم من أن هؤلاء « الهامشيين » لم تكن لديهم تطلعات اقتصادية عالية قبل هجرتهم الى هذه المدن ، الا أن الحياة الحضرية ذاتها قد أسهمت فى رفع مستوى هذه التطلعات[٢] • ومن الناحية النظرية قد نفترض أن هذا « الاحباط الاقتصادى » يمكن أن يؤدى ــ فى المدى البعيد ــ الى « تمرد سياسى » • بيد أن الظروف المختلفة المحيطة بهؤلاء الهامشيين لا تمكنهم من تكوين « بروليتاريا صناعية ــ حضرية » بالمعنى الماركسى لهذا التعبير • ويزداد الموقف تعقيدا حينما يفقد هؤلاء الهامشيون كل أمل فى تحقيق أى تقدم اقتصادى أو مهنى سواء من خلالهم أو من خلال أبنائهم • واذا ما استمرت معدلات النمو السكانى لهؤلاء الهامشيين الذين يعيشون فى أحياء واضعى اليد ، فان نسبتهم داخل مدن أمريكا اللاتينية سوف تتضاعف كل عشر سنوات تقريبا ، مما يعمق الاحساس « بالازدواجية الحضرية » ويزيد من حدة التباين الطبقى والاجتماعى والثقافى • وهناك شواهد عديدة تشير الى أن سكان هذه الاحياء يشكلون قوة سياسية قادرة على التأثير السياسى ، برغم افتقادهم لبعض عناصر هذه القوة • لذلك فان الحد من نمو هذه الاحياء لا يقضى فقط على « الهامشية الحضرية » ، ولكنه يبطل أيضا « فتيلا سياسيا » محتملا •وعلى الرغم من أن بعض الدراسات الحديثة

---

(1) ECLA; Urbanization in Latin America; op. cit.

(2) R. Morse; «Recent Research on Latin American....» op. cit; p. 496.

قد أوضحت أن « الهامشية الحضرية » مرتبطة « بالهامشية السياسية » (بمعنى السلبية السياسية وعدم الاهتمام بالقضايا العامة) ، الا أن الاحداث الفعلية فى مدن أمريكا اللاتينية قد برهنت على أن« الهامشيين الحضريين » قد يلعبون دورا حاسما فى بعض الازمات السياسية ، وأن قادة الانقلابات العسكرية يسعون الى كسب تأييدهم من خلال التعهد بتزويد أحيائهم بالخدمات الحضرية الضرورية •

هذا وقد أبدى علماء الانثروبولوجيا الحضرية اهتماما فائقا بدراسة العناصر الثقافية المميزة للاحياء المتخلفة فى مدن أمريكا اللاتينية • ويعد أوسكار لويس Lewis من أبرز العلماء الاجتماعيين اهتماما بهذه العناصر حتى أن اسمه قد ارتبط بمصطلح « ثقافة الفقر» culture of poverty • وتتألف هذه الثقافة من مجموعة من العناصر الشائعة فى الاحياء المتخلفة الفقيرة • أما أهم هذه العناصر فهى : ارتفاع معدلات الوفيات ، وانخفاض متوسطات الاعمار ، وانتشار الامية ، والمشاركة الاجتماعية والسياسية الضعيفة ، والحرمان من الخدمات الحضرية ، وقلة الانتفاع بالتسهيلات والمرافق التى تقدمها المدينة ، وانخفاض مستوى المهارة ، وعدم وجود مدخرات وكثرة الاقتراض ، وعدم توافر مخزون منزلى من المواد الغذائية ، والافتقار الى الخصوصية داخل المسكن ، وكثرة اللجوء الى العنف بما فى ذلك ضرب الاطفال ، وكثرة هجر الزوجة والاطفال ، وتمركز الاسرة حول الام ، والشعور بالاستسلام أو القدرية ، وانتشار عقدة الاعتزاز المفرط بالذكورة عند الرجال ، وعقدة التضحية والاستشهاد عند النساء[1] • ولقد توصل لويس الى هذه العناصر الثقافية بعد عدة دراسات حقلية أجراها على مجموعة من أسر الاحياء المتخلفة فى بورتوريكو ، ثم

---

(١) يمكننا أن نجد مناقشة اكثر تفصيلا لمفهوم « ثقافة الفقر » فى بيلز وهويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ٨٧٠ وما بعدها . أما عناصر هذه الثقافة فنجدها معروضة باستفاضة فى :

Oscar Lewis; «The Folk-Urban Ideal Types»; in Philip Hauser and Leo Schnore; The Study of Urbanization; op. cit; pp. 464-495.

توصل بعد ذلك الى حقيقة أساسية هى ، أن الفقر يخلق ثقافة خاصة به ، بمعنى وجود عناصر مشتركة بين الفقراء أينما وجدوا[١] • وعلى الرغم من أن دراسات لويس قد أثارت انتقادات منهجية وسياسية عديدة ، الا أنها قد لفتت الانظار الى أهمية مفهوم « ثقافة الفقر » كوسيلة لفهم كثير من الظواهر الحضرية فى مدن الدول النامية • فعلى سبيل المثال نجد توماس جلادوين Gladwin فى دراسة له عن « الفقر فى الولايات المتحدة » يذهب الى أن الفقر فى المدن الامريكية لا يعنى مجرد انخفاض الدخل ، وانما يعنى كذلك تعرض الانسان للاحتقار واحساسه بالافتقار الى المهارات • ويعتقد جلادوين أن السياسة الامريكية المتعلقة بمواجهة الفقر كانت تقوم دائما على أساس أن الثقافة « تخلد نفسها بنفسها » ؛ وبالتالى يظل الفقير عاجزا ومحتقرا وضعيفا[٢] • والواقع أن جلادوين بدراسته هذه قد حاول تحد مفهوم « ثقافة الفقر » والبرهنة على أن الفقراء لا يختلفون فى أهدافهم وقيمهم عن أبناء الثقافة الاساسية •

كذلك أبدى بعض علماء الانثروبولوجيا اهتماما ملحوظا بدراسة تأثير الثقافة الريفية على المهاجرين الى مدن أمريكا اللاتينية • فلقد أوضح أنتونى ليدز Leeds فى دراسة له على المهاجرين الى مدينتى ريو دى جانيرو وليما أن من الصعب القول بأن الثقافة الريفية تسيطر على سكان الاحياء المتخلفة من المهاجرين الريفيين • إذ أن نسبة كبيرة من هؤلاء المهاجرين قد أتوا من مدن أخرى ، وأن كثيرا من الريفيين المهاجرين قد اتصلوا بالمدينة قبل هجرتهم اليها من خلال الخدمة العسكرية أو الاعمال الموسمية أو الزيارات الطويلة للاقارب الحضريين • ومعنى ذلك أن هؤلاء المهاجرين لا يفتقرون — بالضرورة — الى الاساليب التى تمكنهم من التكيف مع الحياة الحضرية • كذلك اشار ليدز الى أن سكان أحياء واضعى

---

(1) Oscar Lewis; The Children of Sanchez; New York : Random House; Alfred A. Knopf; 1961.

(٢) بيلز وهويجر ، المرجع السابق ، ص ٨٧٣ .

اليد فى مدن أمريكا اللاتينية يعانون ــ بالفعل ــ من الاحساس «بالهامشية» الراجع الى عدم قدرتهم على الاندماج فى حياة المدينة بطرق قانونية أو شرعيه • فقد يلجأ بعضهم الى السرقة فى وقت الازمات الاقتصادية ، لكن البعض الآخر لا يستطيع ذلك حتى ولو أراد • ويضطر هؤلاء «الهامشيون» الى العيش فى ظل مواردهم المحدودة للغاية ، فتنشأ عادات اقتصادية تدور حول التدبير واستغلال كل ما يمكن استغلاله[1] • ولقد قصد ليدز بهذه الدراسة توضيح مرونة البناء الاجتماعى للاحياء المتخلفة فى مدن أمريكا اللاتينية ، وكيف أن مفاهيم « جامدة » كثقافة الفقر قد تحول دون فهم الديناميات الاجتماعية الحقيقية • وبغض النظر عن الاختلافات التفصيلية بين علماء الانثروبولوجيا الحضرية حول العناصر الثقافية المختلفة المميزة للاحياء المتخلفة فى مدن أمريكا اللاتينية ، فاننى أعتقد أن هذه الاختلافات قد تكتسب معانيها ودلالاتها الحقيقية اذا ما نظرنا اليها فى ضوء البناءات الاجتماعية الحضرية بوجه عام • لقد ظل علماء الاجتماع الحضرى ــ والى حد ما علماء الانثروبولوجيا الحضرية ــ يهتمون بدراسة البناء الطبقى الحضرى فى مدن الدول النامية فى ضوء النظريات الغربية المفسرة للبناءات الطبقية الحضرية فى الدول الصناعية • واذا ما سلمنا بأن البناء الطبقى الحضرى فى مدن الدول النامية قد تشكل من خلال عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية (تاريخية ومعاصرة) ، أدركنا مدى الخصوصية التى تميز هذا البناء ، مما قد يساعدنا على فهم أفضل لطبيعة المشكلات التى تواجهها هذه المدن والعوامل المختلفة التى تؤدى الى ظهورها •

---

(1) Anthony Leeds and Elizabeth Leeds «Brazil and the Myth of Urban Rurality : Urban Experience; Work and Values in Squatments of Rio De Janeiro and Lima»; in A. Field (ed.); City and Country in the Third World; Cambridge; Mass; 1970; p. 233.

obeikandl.com

الفصل السادس

آسيا

هى أكبر قارة « حضرية » على الاطلاق اذا ما أخذنا فى اعتبارنا العدد المطلق للسكان الحضريين[1] • وفضلا عن ذلك شهدت آسيا عددا كبيرا من المراكز الحضرية الهامة منذ فترة مبكرة نسبيا • وعلى الرغم من أن هذه القارة الاستوائية تمثل امتدادا مكانيا لمنطقة الشرق الاوسط التى كانت مهدا للحضارة والتحضر منذ آلاف السنين ، الا أن هذا الامتداد المكانى لم يؤد — على الاقل تاريخيا — الى امتداد حضرى • أى أن مدن آسيا الموسمية لم تكن نتيجة انتشار ثقافى من منطقة الشرق الوسط بقدر ماكانت نتيجة للاستعمار الغربى لها ، ذلك الاستعمار الذى حدث فى فترة متأخرة نسبيا[2] • واذا كنا قد استطعنا فى الفصل السابق التوصل الى بعض التعميمات التى تتناول ظواهر التحضر فى أمريكا اللاتينية ، فان تحقيق ذلك بالنسبة لآسيا يبدو صعب المنال • ذلك أن أنماط التحضر فى كل من الصين واليابان والهند ودول جنوب شرق آسيا متباينة الى حد كبير بسبب تنوع الظروف التاريخية • ولست أنكر وجود خصائص حضرية مشتركة بين هذه الدول ، على الرغم من ان الوصول الى تعميمات قاطعة فى هذا

---

(١) نقصر مناقشتنا هنا على آسيا الاستوائية monsoon التى تمتد من الباكستان غربا الى اندونيسيا واليابان شرقا باستثناء المناطق الآسيوية من الاتحاد السوفيتى . أما الدول العربية الآسيوية (كالعراق والاردن وسوريا ولبنان والعربية السعودية ودول الخليج العربى) وتركيا وايران فقد عالجناها جميعا ضمن فصل خصصناه لمناقشة المدينة فى دول الشرق الأوسط . واعتقد أن هذا التقسيم الجغرافى يتفق — الى حد كبير — مع المتغيرات الثقافية والاجتماعية والسياسية المتصلة بظاهرة التحضر .

(2) Roads Murphey; «Urbanization in Asia»; in Gerald Breese (ed.) The City in Newly Developing Countries; Prentice-Hall; Inc; New York; 1972; pp. 58-75.

المجال لايخلو من مخاطر • وبالاضافة الى تنوع الظروف التاريخية التى مرت بها هذه الدول الآسيوية ، فان هناك مشكلات منهجية واحصائية قد تحول دون الوصول الى أحكام على قدر كبير من اليقين • اذ أننا لانستطيع أن نعرف على وجه التحديد عدد السكان الحضريين فى قارة آسيا بأكملها ، كما أننا قد نعجز عن حصر كل العوامل التى أدت الى ارتفاع معدلات التحضر سواء فى الماضى أو الحاضر •ولا شك أن قلة البيانات الاحصائية المتاحة وندرة الدراسات المنشورة قد زادت من صعوبة الوصول الى تعميمات صادقة فيما يتعلق بمعدلات التحضر ونتائجه[1] • وعلى الرغم من أن المعلومات والبيانات المتعلقة بالتحضر فى اليابان وغيرة نسبيا اذا ما قورنت بتلك المتعلقة بالتحضر فى دول آسيوية أخرى ، الا أنها ماتزال محدودة بمقارنتها بالمعلومات والبيانات التى تتناول التحضر فى الدول الصناعية الغربية • وربما أتت الهند بعد اليابان فيما يتعلق بوفرة البيانات الاحصائية المتعلقة بالتحضر • أما فيما يتعلق بالصين فاننا نواجه ندرة شديدة فى البيانات الحضرية وعلى الاخص بعد الثورة الشيوعية ، على الرغم من أن عدد سكان المدن فى الصين يزيد عن عدد سكان المدن فى أية دولة أخرى من دول العالم • ويصدق ذلك أيضا على اندونيسيا التى تأتى فى المرتبة الثالثة من حيث عدد السكان فى قارة آسيا (أكثر من ١٠٠ مليون نسمة) •

والملاحظ أن التحضر أقل ارتباطا بالتصنيع فى آسيا منه فى أوربا أو أمريكا الشمالية • ومعنى ذلك أن آسيا تشهد « تضخما حضريا » برغم انخفاض معدلات التحضر فيها عن نظيراتها فى دول العالم المتقدم • والمؤكد أن عدد سكان المدن الآسيوية قد ازداد زيادة ملحوظة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية دون نمو المقومات الصناعية والتجارية التى تستند اليها هذه المدن • وربما كان ذلك أحد الاسباب التى دعت سوفانى Sovani الى القول

---

(1) Philip Hauser; Urbanization in Asia and the Far East; UNESCO; 1956.

بأن المدن الآسيوية تعانى من « تضخم حضرى » لاتكاد تعرفه معظم مدن العالم بما فى ذلك مدن الدول النامية[١] • على ان التناقض الاساسى الذى نلمسه فى آسيا بوجه عام هو أنه برغم انخفاض معدلات التحضر عن بقيه دول العالم (فى سنة ١٩٧٠ كان ٢١٪ من مجموع سكان القارة يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة) الا ان المدن الآسيوية تعانى من مشكلات حضرية لاتكاد تقع تحت حصر • ولاتكاد آسيا تتفوق فى معدل التحضر الا على أفريقيا • لذلك فان آسيا ــ ككل ــ تعد قارة زراعية بالمعنى الواسع لهذا التعبير • ومع ذلك فاننا نجد تفاوتا فى معدلات التحضر من منطقة لأخرى داخل آسيا• ففى منطقة شرق آسيا يرتفع معدل التحضر (٢٨٫٦٪)•وتضم هذه المنطقة اليابان التى يصلفيها هذا المعدل الى٧٥٪[٢]• واذا كان لنا أن نستنتج من ذلك شيئا فهو : أنه بينما تعد آسيا قارة زراعية، تشهد ــ فى نفس الوقت ــ عددا كبيرا من المدن العالمية الضخمة العملاقة • ففى وسط مدينة شانغهاى يعيش ١١ مليون نسمة لتصبح بذلك أكبر مدينة فى العالم • أما طوكيو التى تضم تسعة ملايين نسمة فتأتى فى المرتبة الثانية • واذا ما أخذنا فى الاعتبار المنطقة الميتروبوليتانية التى تضم طوكيو ويوكوهاما ؛ وجدنا أمامنا عشرين مليونا من البشر يعيشون فى أضخم « تجمع حضرى » عرفه العالم منذ نشأته • ونضيف الى ذلك عددا من المدن الآسيوية الاخرى الكبرى مثل بومباى وكلكتا وبكين • واذا كان صحيحا أن آسيا تشهد « تضخما حضريا » ، فانه من الصحيح أيضا ان مدنها مانزال تجذب اليها أعدادا كبيرة من المهاجرين الريفيين على نحو ما سنرى فى مواضع لاحقة •

وفضلا عما سبق فان دراسة المدن الآسيوية لاتخلو من مشكلات منهجية مصدرها صعوبة تحديد اطاراتها أو مجالاتها المكانية • فلقد ظلت المدن الآسيوية التقليدية لفترة طويلة محافظة على حدودها الاقليمية

---

(1) N. V. Sovani; «The Analysis of Overurbanization»; in Gerald Breese; (ed.) The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 322-331.

(2) The World Population Situation in 1970; United Nations; New York; 1971; p. 64.

وعلاقاتها بالمناطق الريفية المحيطة بها • غير أن ارتفاع معدلات التحضر فى آسيا خلال العقود الاخيرة قد ميع الحدود بين المدن من ناحية ، ومناطقها الريفية من ناحية أخرى • كما أن « ثورة المواصلات » قد ألغت حواجز المكان والزمان ، بحيث أصبحت المدن الآسيوية على مرمى بصر السكان الريفيين • لقد بدت المدن أمامهم وكأنها تغريهم بالعيش فى أحضانها وأحيائها • ومن هذه الزاوية يمكننا تفسير ظهور المجمعات الحضرية الكبرى مثل « طوكيو الكبرى » وتلك التى بدأت تتكون خلال السنوات الاخيرة مثل بومباى وكراتشى ومدراس ودلهى وسنغافورة وكوالامبور وجاكارتا ومانيلا • والملاحظ أن المدن الآسيوية لاتختلف كثيرا عن بقية مدن الدول النامية فيما يتعلق بتأثير الهجرة الريفية عليها • اذ أن أكثر من نصف سكان المدن الآسيوية قد ولدوا فى مناطق ريفية[1] • ومع أن الهجرة الريفية ــ الحضرية الموسمية شائعة الى حد ما فى بعض الدول الآسيوية ، الا أن معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية الدائمة ترتفع من عام لآخر • وعلى الرغم من المشكلات المنهجية التى قد تواجهنا عند دراسة المدن الآسيوية ، الا أن ذلك يجب ألا يعوقنا عن فهم « الخصوصيات الحضرية » فى قارة ضخمة كآسيا تضم حوالى نصف سكان مدن العالم • كما ان هذه المدن قد لعبت ــ وماتزال ــ أدوارا سياسية بالغة الاهمية مما يدفعنا الى القاء نظرة تاريخية عليها •

ولقد أوضحت بعض التحليلات التاريخية أن « المكانة الحضرية » التى احتلتها آسيا تعود الى بدايات القرن الثانى عشر الميلادى • ففى سنة ١١٠٢ كانت كيفينج هى عاصمة معظم أجزاء الصين بحدودها المعروفة لنا الآن ، حيث بلغ عدد سكان هذه العاصمة ٤٤٢٫٠٠٠ نسمة ، وبذلك شهدت الصين أكبر مدينة فى العالم خلال تلك الفترة[2] • وخلال القرنين

(1) U. N-ECAFE Secretariat; The Demographic Situation and Prospective Population Trends in Asia and the Far East; in G. Breese (ed.); The City.... op. cit; p. 67-80.

(2) T. Chandler and G. Fow; 3000 Years of Urban Growth; Academic Press; 1974. p. 23.

الرابع عشر والخامس عشر كانت مدينتى نانكين وبكين من أكبر مدن العالم اذا ما استثنينا القاهرة والقسطنطينية ، ثم لندن بعد ذلك التى وصل عدد سكانها فى سنة ١٨٥٠ الى ٢ر٥ مليون نسمة • وفى سنة ١٩٦٨ كانت آسيا باستثناء الاتحاد السوفيتى تضم تسعة من أكبر مدن العالم المعاصر • واذا ما اعتبرنا الاتحاد السوفييتى جزءا من آسيا ، ارتفع هذا الرقم الى احدى عشر مدينة عملاقة[1] • على أننا يجب أن نميز — تاريخيا — بين نمطين واضحين من المدن الآسيوية • هناك أولا المدن الآسيوية الوطنية التى ظلت لفترة طويلة مراكز سياسية وثقافية هامة • والواقع أن هذه المدن لم تكن تؤدى وظائف اقتصادية أو تجارية بقدر ما كانت تؤدى وظائف سياسية • أى أنها كانت تمثل التجسيد الحقيقى للسلطات السياسية التى تمارسها الحكومات الوطنية • وكانت هذه المدن تقع — عادة — فى داخل الدول الآسيوية باستثناء اليابان وأجزاء من جنوب شرق القارة ، حيث كان من المستحيل ان تقام المدن فى المناطق الداخلية • ويبدو أن وجود هذه المدن فى قلب الدول الآسيوية لم يكن يخلو من اعتبارات أمنية وسياسية[2] • فبقدر ما كانت تتفادى هذه المدن الغزوات البحرية الساحلية ، بقدر ما كانت تحكم سيطرتها على مختلف أنحاء البلاد • ومن الامثلة الشهيرة على ذلك بكين ودلهى ، حيث لعبتا أدوارا سياسية وثقافية بالغة الاهمية كما يتبدى ذلك فى تراثهما التاريخى من المعابد والقصور والآثار التذكارية • واذا كانت المدن الصينية قد عرفت الحاجة الى الحماية فأقامت الاسوار التى تحيط بها من كل جانب ، فان المدن اليابانية لم تستشعر الحاجة الى اقامة مثل هذه الاسوار • وهناك ثانيا المدن الآسيوية الاستعمارية التى تدين فى نشأتها الى التغلغل الاستعمارى الغربى فى قارة آسيا الذى اتخذ فى البداية شكل السيطرة الكاملة على طرق التجارة • وتختلف هذه المدن الاستعمارية

---

(1) Ibid; p. 25.

(2) Norton S. Ginsburg; «Urban Geography and (Non-Western) Areas»; in P. Hauser and Leo Schnore; (eds.) The Study of Urbanization; John Wiley & Sons; N. Y; 1965; pp. 411-376.

عن المدن الوطنية من وجوه عديدة • فهى (أى المدن الاستعمارية) نشأت نشأة تجارية ، كما أن معظمها كان يقع على السواحل البحرية من أجل تسهيل التجارة والاتصال مع الدول الاستعمارية • وفى بداية الامر ظلت هذه المدن بمثابة مراكز أو نقط تجارية صغيرة الحجم تضم قلاعا للاشراف على حمايتها[١] • غير أن هذه المدن ما لبثت أن حققت نموا كبيرا بعد حصول الدول الآسيوية على استقلالها السياسى• ومن الامثلة الواضحة على هذه المدن الآسيوية ذات النشأة الاستعمارية : هونج كونج ، وسنغافورة ، وشانغهاى ، وكلكتا ، وبومباى • أما النمط الايكولوجى لهذه المدن فكان يعكس بوضوح نشأتها غير الآسيوية • فخلال الحقبة الاستعمارية كان الآسيويون والاوربيون يعيشون فى أحياء منفصلة ومتباعدة • أما الاحياء الاوربية فكانت تتبع خطة هندسية واضحة : شوارع واسعة ومستقيمة وطويلة ، بينما لم تكن الاحياء الوطنية تتبع خطة هندسية على الاطلاق : حوارى ضيقة مقفلة النهاية متعرجة مزدحمة السكان • وفضلا عن ذلك كانت هذه المدن الآسيوية الاستعمارية تعتمد اقتصاديا على التجارة مع الدول الاوربية وبعض الصناعات الخفيفة • وعلى الرغم من هذه المدن كانت ترتبط مكانيا بآسيا ، الا أنها كانت ترتبط اقتصاديا وتجاريا وسياسيا بأوربا وعلى الاخص بريطانيا[٢] • لقد زرعت فيها القوى الاستعمارية كثيرا من النظم الحضرية الغربية ، وأفقدتها بذلك الارتباط بدولها الوطنية • ومازال هونج كونج وسنغافورة تعكسان حتى الآن هذه التبعية الاقتصادية ، برغم أنهما قد أصبحتا من أهم المراكز التجارية والصناعية فى عالمنا المعاصر •

وهناك تباين ملحوظ بين الدول الآسيوية فيما يتعلق بمعدلات التحضر •

---

(1) John Palen; The Urban World; McGraw-Hill; Inc; N. Y; 1975; p. 395.

(2) N. Keyfitz; «Political-Economic Aspects of Urbanization in South and Southeast Asia; in P. Hauser; and Leo Schnore (eds.): The Study of Urbanization; op. cit; pp. 265 ff.

فاذا ما نظرنا الى نسبة السكان الذين يعيشون فى مدن تعدادها مليون نسمة، لاحظنا تفاوتا كبيرا[١] • فهناك مجموعة من الدول الآسيوية يعيش أقل من ١٠٪ من سكانها فى مدن من هذا الحجم (باكستان ٢ر٤٢٪ ، والصين ٤ر٨٪ ، والهند ١ر٥٪ ، وتايلاند ٢ر٥٪ ، وأندونيسيا ١ر٦٪ ، والفيلبين ٢ر٨٪) • ثم هناك مجموعة أخرى فيها ضعف هذه النسبة تقريبا (كوريا الجنوبية ١٢٪ وفيتنام الجنوبية ٣ر١٤٪) • أما اليابان (التى لا تصنف ضمن الدول النامية) فتصل فيها هذه النسبة الى ٥ر٢٤٪ فى مقابل ٢ر٦١٪ فى سنغافورة و ١٠٠٪ بالنسبة لهونج كونج[٢] • ويبدو أن الهجرة الريفية ــ الحضرية فى معظم الدول الآسيوية تشكل المصدر الاساسى للنمو الحضرى بعامة ، وتضخم « المدن الاولى » بخاصة • ولقد أوضحت التحليلات السكانية أن معدلات نمو السكان الحضريين فى آسيا تفوق كثيرا معدلات النمو السكانى بوجه عام ، مما يؤكد الدور الذى تلعبه الهجرة الريفية فى هذا المجال • وربما كانت اليابان هى الاستثناء الآسيوى الوحيد من ذلك • ففيما بين سنتى ١٩٥٥ و ١٩٦٠ تناقصت نسبة السكان اليابانيين الذين يعيشون فى مدن كبرى بسبب السياسة اللامركزية التى انتهجتها الحكومة اليابانية وعلى الاخص فيما يتعلق بالمشروعات الصناعية • لذلك فان معدلات الزيادة الطبيعية كانت تشكل المصدر الوحيد للنمو الحضرى المحتمل [٣] •

ونظرا للتنوعات الحضرية التى تنطوى عليها هذه القارة الضخمة ، فان مناقشة أنماط التحضر الاساسية فى المناطق الهامة فيها تبدو أمرا ضروريا • لذلك فاننا سنتناول فيما تبقى من هذا الفصل الظواهر الحضرية فى كل من الهند واليابان والصين وجنوب شرق آسيا • ويستند هذا

---

(١) طبقا لبيانات الامم المتحدة الصادرة فى سنة ١٩٦٠ .

(٢) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى الدول النامية ، ترجمة محمد الجوهرى، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٦٦ .

(3)U. N-ESAFE Secretariat ; «The Population Situation ...» in Gerald Breese (ed.) The City ... op. cit; p. 79.

التصنيف الى بعض الاعتبارات لعل أهمها تباين خبرات التصنيع والتحضر من دولة آسيوية لاخرى • فاليابان قـد تنتمى الى آسيا جغرافيا ، لكنها تنتمى الى الدول المتقدمة من حيث درجة التصنيع ومعدل التحضر • كما أن دولا مثل هونج كونج وسنغافوره قد تنتمى الى الـدول المتقدمة من حيث معدلات التحضر ، برغم أنها تنتمى مكانيا الى آسيا • واذا ما أضفنا الى ذلك كله الصين وما تشكله من واقع اقتصـادى ــ سياسى متميز ، تعقدت أمامنا « الصورة الحضرية » ، مما يدفعنا الى تخصيص مناقشـة مستقلة لهذه المناطق الآسيوية المختلفة • وقبل أن نبدأ هذه المناقشة يتعين علينا تأكيد قضية أساسية هى ؛ أن المعالجة المستقلة للظواهر الحضرية فى هذه المناطق لاتعنى انعدام التشابه بينها بقدر ما تعنى أخذ « الخصوصيات الحضرية » فى الاعتبار قبل الوصول الى أية أحكام عامة • إن التعميمات المتعلقة بالمدن الآسيوية ماتزال محدودة للغاية • وأعتقد أن الخطوة الاولى التى يجب أن تسبق التوصل الى هـذه التعميمات تتمثل فى التعرف على الطابع الذى يميز هـذه المدن ، تلك التى تمارس وظائفها فى ظل ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية متباينة •

واذا ما بدأنا مناقشتنا بدراسـة المدن الهندية ، لاحظنا أنها تمثـل خليطا من سمات وطنية وأخـرى أجنبية أو غربيـة • وقـد نلمس هذه « الازدواجية » على مستوى أحياء المدينة الواحدة كما قد نلمسها عـلى مستوى المدينة ككل كما هـو الحال بالنسبة لدلهى ونيودلهى • والملاحظ أن كثيرا من المـدن الهندية الكبرى تدين فى نشأتها للحقبة الاستعمارية ، حيث نجد بصمات الحكم البريطانى ماتزال واضحـة على الاحياء الراقية التى ظلت لفترة طويلة مقرا للجاليات الاجنبية • وفضلا عن ذلك فان نظام الطوائف الهندية قد أحدث تأثيرا بالغا على ايكولوجية المـدن الهندية • فالطوائف ذات المكانة العليا (كالبراهما) تميل الى الاقامة فى الاحياء الراقية، بينما تميل الطوائف ذات المكانة الدنيا (كالفيزا) الى الاقامة فى الاحياء

الشعبية[١] . واذا كانت هذه الطوائف قد فرضت « حواجز اجتماعية » بين الجماعات المختلفة ، فانها قد أدت أيضا الى ظهور أنماط ايكولوجية لاتخلو من « حواجز مكانية » . ومن بين السمات الهامة المميزة للمدن الهندية الكبرى وجود أحياء شعبية ذات كثافة سكانية عالية جدا ، ووجود أحياء راقية ذات كثافة سكانية منخفضة للغاية . كذلك فان المدن الهندية تعانى من تضخم أحياء واضعى اليد أو أحياء « الباسطى » bustees الشديدة الشبه « بأحياء العشش والصفيح » . وتلعب وسائل النقل دورا هاما فى تحديد طابع المدن الهندية . وتتدرج هذه الوسائل من الجمال والحمير حتى سيارات النقل السريعة وقطارات الضواحى السريعة ، وبين هذين القطبين نجد عربات التونجا (عربات ذات عجلتين تجرها الخيول) والعربات ذات المقعد الواحد التى يجرها آدمى ، وعربات الريكشا البخارية ، والدراجات والعربات التى تجرها الثيران ، وسيارات التاكسى ، والسيارات الخاصة ، وسيارات النقل بأنواعها المختلفة ، وعربات اليد ، والترام . ومن شأن هذا التنوع فى وسائل المواصلات ان يؤدى الى تعقد شبكات المرور وعلى الاخص فى المدن الكبرى[٢] .

ولقد أوضح جيرالد بريز Breese أن البناء الحضرى للمدينة الهندية الكبيرة يتألف من عدة قطاعات أساسية : الاحياء الوطنية القديمة ، والاحياء الاجنبية الحديثة ، ومناطق الاسكان الحكومى والمعسكرات ، والباسطى « أو أحياء الصفيح » ، والجيوب الريفية[٣] . أما الاحياء الوطنية التى نشأت خلال فترة الاستعمار البريطانى فكانت تشكل نويات

---

(1) J. E. Brush; «The Morphology of Indian Cities»; in R. Turner; (ed.) India's Urban Future; Berkeley : University of California Press ; 1962; p. 58.

(2) B. F. Hoselitz; «The Cities of India and Their Problems»; in R. Turner (ed.); op. cit; pp. 425-443.

(٣) استخدم بريز هذا التصنيف فى دراسته عن دلهى — نيودلهى التى ضمنها كتابه مجتمع المدينة فى الدول النامية ، المرجع السابق ، ص ص ١١٦ — ١٤٦ .

حضرية ما لبثت أن حققت اتساعا ونموا • وعلى الرغم من اختلاف مساحة هذه الاحياء من مدينة لاخرى ، الا أنها لم تحقق امتدادا مكانيا بسبب موقعها الوسطى • وبرغم الكثافة السكانية فى هذه الاحياء ، الا أن استخدام الارض فيها يتخذ أشكالا متعددة • فهى تضم المساكن والمتاجر والمخازن والمصانع الحرفية الصغيرة • أما شوارع هذه الاحياء فهى غير منتظمة الاتجاه والطول والاتساع • على أن هذه الاحياء الوطنية لم تستطع استيعاب جميع السكان الذين جذبتهم اليها مما أدى الى انتقال الفائض السكانى الى الاحياء المجاورة • ولقد أخفقت جميع محاولات التحكم فى استخدام الارض تحت وطأة الضغط السكانى المتزايد • وأحد النتائج المترتبة على ذلك تحول كثير من الوحدات السكنية الى متاجر أو مصانع صغيرة ، فى حين تحولت وحدات أخرى الى وحدات أصغر لتستطيع ايواء أكبر عدد من السكان • أما الاحياء الاجنبية الحديثة فتتميز بالانفتاح النسبى والنظام والهدوء ، كما أنها تخضع لخطة حضرية أكثر تطورا • ومع ذلك فمنذ حصول الهند على استقلالها تفاوت مصير هذه الاحياء • فقد استطاع بعضها المحافظة على طابعه ، بينما تعرض البعض الآخر للضغوط السكانية مما أدى الى حدوث « تدهور حضرى »[1] • وبالاضافة الى ذلك هناك مناطق الاسكان الحكومى التى يعيش فيها بعض موظفى الدولة كالعاملين فى السكك الحديدية ، ورجال الشرطة ، والمهندسين ، والاطباء • وعلى الرغم من أن هذه المناطق تتمتع بخدمات حضرية أفضل من تلك التى تتمتع بها الاحياء الوطنية القديمة ، الا أنها تشترك معها فى بعض الخصائص كالكثافة السكانية العالية ، واختلاط السكن بالتجارة • أما أحياء الباسطى (أو مدن واضعى اليد) فتكاد تكون أحد معالم المدن الهندية الكبرى [2] • فما بين عشية وضحاها تتحول المبانى المؤقتة (المصنوعة من

---

(1) Jal F. Bulsara; Problems of Rapid Urbanization in India; London; 1964.

(2) A. Bopegamage; Delhi : A Study in Urban Sociology; Bombay; 1957; pp. 93-109.

الصفيح) الى أحياء ضخمة تقع على الحدود الخارجية للمناطق الحضرية ، وخاصة على طول الطرق الرئيسية المؤدية الى المدن • وتنمو هذه الاحياء بجوار مشروعات البناء وفى المناطق المتخلفة أو مناطق الفضاء البعيدة فى مختلف أنحاء المدينة • وغالبا ما تتألف الوحدات السكنية فى هـذه الاحياء من حجرة واحدة ، مما يخلق كثافة سكانية عالية فى مناطق تفتقر تماما الى الخدمات الحضرية • وتكاد تقتصر هذه الاحياء على الوافدين الجـدد الى المدينة • وفى بعض الاحيان يقوم الموظفون الحكوميون بحملات تفتيشية فاشلة بهدف القضاء على هـذه الاحياء أو اخضاعها لنوع من الاشراف والرقابة • غير أن هذه الحملات لم تحدث تأثيرا على نموها • وتشير البيانات الاحصائية الرسمية الى أن مدينة دلهى قد عرفت فى سنة ١٩٥٩ حوالى ٨٥ حيا من أحياء واضعى اليد (الباسطى) يسكن فى كل منها عدة آلاف من الاسر • أما عدد السكان الذين كانوا يعيشون فى هذه الاحياء فقـد بلغ ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة • وبالاضافة الى هذه الاحياء تشهد المدن الهندية « جيوبا ريفية » بسبب ارتفاع معدلات الهجرة الريفية اليها • وبنمو هذه الجيوب يزداد احتمال اقترابها من القرى المجاورة • وفى حالات أخرى قد يؤدى النمو الحضرى الى تطويق هذه « الجيوب الريفية »[1] • والواقع أن ازالة هذه الجيوب الريفية قد تكون أمرا صعبا ان لم يكن مستحيلا • اذ أنها تتيح فرص الاسـكان الرخيص للمهاجرين الريفيين ، كما أنها قـد تستخدم كمخازن لبعض الشركات بسبب الانخفاض النسبى فى أسعـار أراضيها •

ويبدو أن الحجم النسبى لهذه الاحياء والمناطق يتوقف على الظروف التاريخية التى مرت بها كل من المدن الهندية الكبرى • ففى المـدن التى يزداد فيها التأثير الاوربى يتسـع نطاق الاحياء الاجنبية الحديثة ، بينما يضيق نطاقها فى المدن التى لم تشهد اقامة أوربية استعمارية واسعة المدى• كذلك فان نمو معدلات التحضر بعد حصول الهند على استقلالها السياسى

(1) R. V. Rao and P. B. Desoi; Greater Delhi : A Study in Urbanization 1940-1957; New York; 1965.

لم يسمح بتنظيم عملية التوسع الحضرى فى اطار خطة عامة شاملة ، وتكاد تنفرد الهند من بين الدول الآسيوية بنمو « المجمعات الحضرية » الضخمة conurbations • فكلكتا الكبرى ما هى الا « مجمع حضرى » ممتد على طول أحد الانهار الهندية ، كما أن بومباى — هى الاخرى — قد تحولت الى « مجمع حضرى » يلتف حول ميناء بومباى ويمتد طول الساحل • وهناك صلة وثيقة بين نمو هذه « المجمعات » من ناحية والتوطن الصناعى من ناحية أخرى • وقد تكون الصلة العامة بين التحضر والتصنيع ليست قوية فى الهند ، الا أن نمو حركة التصنيع قد يكون أحد العوامل المساعدة على زيادة النمو الحضرى[1] • ومع أن الهند قد بدأت تستخدم خلال السنوات الاخيرة أساليب النقل والمواصلات الحديثة مما خفف من حدة المركزية الصناعية الصارخة ، الا أن الشواهد المتاحة لدينا تشير الى أن الاتجاه نحو توطين الصناعات فى المدن الكبرى آخذ فى الازدياد بسبب قلة الاستثمارات التى قد تخصص لاقامة مناطق صناعية جديدة • لذلك فان القرار اليسير الذى يتخذه السياسيون بشأن موقع الصناعات هو الافادة من الهياكل الاساسية للمدن الهندية القائمة •

والواقع أن المدن الهندية لا تختلف كثيرا عن مدن أمريكا اللاتينية فيما يتعلق باتساع وانتشار أحياء واضعى اليد • غير أن سكان هذه الاحياء فى الهند يخضعون لظروف أكثر قسوة من تلك التى يخضع لها قرناؤهم فى أمريكا اللاتينية • فأحياء « الباسطى » فى الهند هى واحدة من أكثر الاحياء المتخلفة تخلفا فى جميع أنحاء العالم ، حيث يعيش فيها مئات الآلاف من المهاجرين فى ظل ظروف غير انسانية • ويتدفق المهاجرون الريفيون الى المدن الهندية لانهم فقدوا أى أمل فى حياة ريفية انسانية • وعلى الرغم من مشروعات التنمية الاقتصادية التى أنجزت خلال العقود القليلة الماضية فى الهند ، الا أن معدلات النمو السكانى العالية تكاد تبتلع

(1) Norman Gist; «Urbanism in India»; in Sylvia Fleis Fava (ed.) Urbanism in World Perspective; Thomas Crowell; 1968.

أى نمو اقتصادى محقق • ففى سنة ١٩٧٢ بلغ عدد سكان الهند ٦٠٠ مليون نسمة ، فى حين وصلت الزيادة السنوية للسكان الى ١٣ مليون نسمة ، أى ما يعادل عدد سكان قارة استراليا بأكملها[١] • وبسبب هذه الزيادة السكانية الهائلة بدأت المدن الهندية تتجه من سيء الى أسوأ • وقد نستشهد على ذلك بما حدث لكلكتا • إذ يبلغ عدد سكان هذه المدينة أكثر من سبعة ملايين نسمة يعيشون فى ظل فقر مدقع • وطبقا للاحصاءات الرسمية الهندية فان ثلاثة أرباع سكان المدينة يعيشون فى أحياء متخلفة مزدحمة تفتقر الى الخدمات الحضرية ، كما أن ٥٧ ٪ من أسر المدينة تعيش فى مساكن مؤلفة من حجرة واحدة • وفى كلكتا تصل الظروف السكنية الى أدنى مستوى لها فى العالم • فهناك أكثر من ٣٠٠ر٠٠٠ شخص لا يجدون مأوى يأويهم ولا يحصلون على الحد الادنى من الطعام ، مما دفع بعض الدارسين الى القول بأن بعض سكان كلكتا يولدون فى الشوارع ويموتون فيها أيضا • لقد تحولت كلكتا الى مدينة هندية ضخمة دون أن تكون لديها المقومات الصناعية والتجارية التى تؤهلها لذلك • وبقدر ما تعانى الهند من « طفح سكانى » (من المقدر أن يصل عدد السكان فى سنة ١٩٨٥ الى ٨٠٨ مليون نسمة) بقدر ما تعانى من « تضخم حضرى »[٢] •

واذا ما تناولنا المدن الصينية وجدنا واقعا حضريا مختلفا عن ذلك الذى ألفناه فى المدن الهندية • وعلى الرغم من أن البيانات الاحصائية المتاحة لدينا عن معدلات التحضر ليست حديثة تماما بسبب القيود المفروضة عليها من قبل الحكومة الصينية ، الا أن هناك مجالا مفتوحا للاجتهاد فى حدود ما هو متاح من بيانات • فطبقا للتعداد الصينى الذى أجرى فى سنة ١٩٥٣ بلغ عدد سكان الصين ٥٨٣ مليون نسمة ، ثم ارتفع هذا الرقم ــ طبقا للبيانات الصينية الرسمية ــ الى ٦٤٧ مليون نسمة

---

(1) Philip Hauser (ed.) Urbanization in Asia and the Far East; op. cit.

(2) Nirmal K. Bose; «Calcutta : A Premature Metropolis» Cities : A Scientific American Book. Alfred A. Knopf; 1970; pp. 59-74.

فى سنة ١٩٥٧ • وتشير الدراسات التنبؤية التى قام بها مكتب الاحصاء التابع للأمم المتحدة ، الى أن أقل التقديرات تؤكد أن عدد سكان الصين قد وصل فى سنة ١٩٧٥ الى ٨٦٩ مليون نسمة ، بينما تذهب أعلى التقديرات الى أن هذا الرقم قد وصل الى ٩٣٢ مليون نسمة[١] • ويذهب بعض الدارسين الى أن معدل الزيادة الطبيعية فى الصين يصل الى ٢٪ سنويا • ولو افترضنا أن هذا المعدل هو ١٪ فقط ، لكان معنى ذلك أن عدد سكان الصين سيصل الى بليون نسمة فى سنة ٢٠٠٠ • ويكاد يتركز سكان الصين فى المناطق الجنوبية الشرقية من البلاد ، كما أن ٩٦٪ من السكان يعيشون فى ٤٠٪ من مساحة الصين •

وخلال فترة الاستعمار الاوربى حققت المدن الساحلية الصينية (الموانى) نموا سكانيا وصناعيا ملحوظاً • بيد أن هذه المدن قد ظلت طوال القرن التاسع عشر خاضعة تماما للسيطرة الاوربية ، ثم اليابانية فى فترة لاحقة • لقد أجبرت القوى الاوربية حكومة المانشو الضعيفة على التحكم فى الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمدن الصينية الكبرى[٢] • وداخل هذه المدن كان الاوربيون يعيشون فى أحياء سكنية جديدة منفصلة عن تلك التى يقيم فيها الصينيون ، كما كانوا يتمتعون بحماية الامتيازات الاجنبية • ففى مدينة شانغهاى ــ التى كانت من أكبر الموانى الصينية ضخامة ورخاء ــ كانت تفصل أحياء الوطنيين الصينيين عن أحياء الاجانب الاوربيين حديقة ضخمة لا يسمح للصينيين بالتجول فيها أو المرور عبرها • ومثل هذا يكاد ينطبق على العاصمة بكين • ومن الغريب أن عدد الاوربيين المقيمين فى المدن الصينية خلال الفترة الاستعمارية كان قليلا للغاية • ففى كانتون (أكبر المدن الصينية الجنوبية) لم يكن عدد الاوربيين المقيمين

---

(1) Morris B. Ullman; «Cities of Mainland China : 1953-1959» in Gerald Breese (ed.) The City in .... op. cit; pp. 81-103.

(2) N. Ginsburg; «Urban Geography and Non-Western Areas»; in P. Hauser and Leo Schnore; (eds.) The Study of Urbanization; op. cit; 327 ff.

فيها يزيد عن ٨٩٤ شخصا ، بينما كان عدد سكان المدينة من الصينيين يزيد عن مليون نسمة[١] • ويبدو أن الحكومة الوطنية التى خلفت حكومة المنانشو فى أوائل القرن العشرين كانت ذات « توجه حضرى » واضح • فمعظم أفرادها كانوا من العسكريين « الحضريين » الذين مارسوا ضغوطا هائلة على الفلاحين من أجل دعم المدن الصينية • بيد أن هذه الظروف قد تبدلت تماما بنجاح الثورة الصينية بقيادة ماوتسى تونج فى سنة ١٩٤٩ • ذلك أن ماو قد اعتمد على الفلاحين فى ثورته وعبر مرارا عن القهر الذى طالما مارسته المدينة الصينية على القرية الصينية[٢] • ولاشك أن هذا المنطلق الايديولوجى كان له أكبر الاثر على الواقع الحضرى الصينى • ولعل أفضل وسيلة لادراك ذلك هى مقارنة الواقع الحضرى فى كل من الصين بعد ثورتها (١٩٤٩) والهند بعد حصولها على استقلالها السياسى (١٩٤٧) • ان ذلك يوضح ما سبق أن أكدناه من أن الايديولوجية السياسية تلعب دورا بالغ الاهمية فى تحديد النمط الحضرى •

وتشير التقديرات السكانية الحديثة (١٩٧٠) الى أن حوالى ٢٠٪ من سكان الصين يعيشون فى مدن ، حيث يبلغ عدد السكان الحضريين ١٦٤ مليون نسمة • واذا ما كانت هذه التقديرات صحيحة ، فان الصين تصبح أكبر دولة فى العالم من حيث العدد المطلق للسكان الحضريين • كذلك تذهب بعض التقديرات السكانية الى أن معدل النمو الحضرى يصل الى ٤ر٤٪ سنويا[٣] • أما الحقيقة الحضرية التى يتعين علينا الاشارة اليها هنا فهى أن الصين تضم أكبر مدينة فى العالم من حيث عدد السكان : شانغهاى • ومنذ نجاح الثورة الصينية فى سنة ١٩٤٩ بدأت معدلات الهجرة الريفية —

---

(1)Ezra Vogel; Canton Under Communism; Harvard University Press; Cambridge; Mass; 1969.

(٢) السيد الحسينى ، « تحليل نقدى لكتاب علم الاجتماع والاشتراكية فى الصين المعاصرة » ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، اكتوبر ، ١٩٨٠ ، ص ص ٢٧٧ — ٢٨٨ .

(3) The World Population Situation in 1970; United Nations; New York; 1971; p. 62.

الحضرية فى الازدياد التدريجى • ففيما بين سنتى ١٩٤٩ و ١٩٥٦ انتقل ٢٠ مليون صينى من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية • غير أن الحكومة الصينية قد اتخذت خلال الستينيات بعض التدابير والاجراءات التى من شأنها تشجيع الهجرة المعاكسة : الحضرية ــ الريفية (من المدينة الى القرية) • وخلال فترة الثورة الثقافية التى شهدتها الصين فى أواخر الستينيات ، بدأت القيادات الثورية تشجع كثيرا من المثقفين على العودة الى الريف والاحتكاك بالفلاحين • وعلى الرغم من أن هذه الهجرة الحضرية ــ الريفية لم تحقق نجاحا ملموسا خلال فترة الثورة الثقافية ، الا أن حقبة السبعينيات قد شهدت تحولا كبيرا لعل أحد مظاهره انتقال الفائض السكانى الحضرى للعمل فى المزارع الجماعية التى كانت قد حققت نجاحا منقطع النظير • وتكاد تكون الصين هى الدولة الآسيوية الوحيدة التى استطاعت مواجهة الهجرة الريفية ــ الحضرية وما يترتب عليها من مشكلات اجتماعية واقتصادية وثقافية • واذا كانت الغالبية العظمى من الدول النامية قد أخفقت فى الحد من هذه الهجرة واجبار المهاجرين العاطلين على العودة الى قراهم ، فان الصين الشعبية قد استطاعت التحكم فيها بفضل القيادة السياسية الحازمة ، والسعى الجاد لتذويب الفوارق « الطبقية » بين القرية والمدينة •

وربما أمكننا الاستشهاد على ذلك بما حدث فى أعقاب الازمة الاقتصادية التى تعرض لها الصين فى سنة ١٩٦٣ • إذ قررت الحكومة الصينية فى تلك السنة ألا يزيد عدد السكان الحضريين عن ١١٠ مليون نسمة • ولتنفيذ ذلك شجعت الحكومة الحضريين من خريجى المدارس العليا والمعاهد الجامعية على الانتقال الى القرى الصينية ، مما أدى الى تخفيف الضغط على الاقتصاد الحضرى والاسهام فى تطوير الزراعة والنهوض بالصناعات الوطنية • ولقد عبر ماوتسى تونج عن موقفه من هذه القضية فأوضح ضرورة عودة الشباب المتعلم الى الريف الصينى من أجل تثقيف الفلاحين ، وأن القيادات الحزبية المركزية يجب أن تشجع الشباب على ذلك ، كما يجب على القيادات الحزبية المحلية تذليل كل العقبات التى تحول

دون هجرة شباب المدن الى الريف[1] • ولقد لقيت دعوة ماو للعودة الى الريف ترحيبا كبيرا من جانب الشبان الحضريين حتى أن بعض الدارسين قد قدروا عدد المتطوعين الحضريين الذين توجهوا الى الريف الصينى بحوالى خمسة عشر مليون متطوع خلال عامين فقط ، كما ان بعضا آخر من الدارسين قد وصل بهذا الرقم الى خمسة وعشرين مليون متطوع (فى سنة ١٩٧٣) • واذا كانت هذه التقديرات صحيحة ، فان الصين تكون بذلك قد شهدت أضخم هجرة « حضرية ــ ريفية » عرفها التاريخ • والملاحظ أن نسبة كبيرة من هؤلاء المتطوعين كانوا ينتمون الى المراكز الصناعية والتعليمية الكبرى مثل بكين وشانغهاى وكانتون • فطبقا للتقديرات الصينية فان شانغهاى وحدها قد « صدرت » للريف الصينى أكثر من نصف مليون مثقف ثورى فى نهاية سنة ١٩٦٩[2] • أما النتيجة المباشرة فكانت تحقيق دفعة اقتصادية للريف الصينى ، وتجنيب المدن الصينية المشكلات التقليدية التى واجهتها معظم مدن الدول النامية •

وتعبر شانغهاى عن المدن الصينية خير تعبير • فلقد نشأت هذه المدينة كمركز تجارى خلال فترة الاستعمار الاوربى ، وفرضت بذلك سيطرتها على حضارة زراعية راسخة الجذور • وخلال عقد واحد من نشأة شانغهاى وافتتاحها للتجارة الدولية (١٨٤٣) ، تحولت المدينة الى مركز تجارى ضخم يعكس بوضوح سيطرة الفكر الاوربى الحضرى خلال القرن التاسع عشر • ومن خلال الامتداد المكانى الذى حققه الاوربيون للمدينة باستخدام القوة والتهديد فى معظم الاحيان ، ازدادت مكانة شانغهاى على المستويين القومى والعالمى • وبعد قيام الثورة الصينية واجه المخططون الحضريون الصينيون فى شانغهاى مشكلات عديدة ناجمة عن

---

(1) Mao Tse-Tung; Selected Works of Mao Tse-tung; Vol. 5; Peking; Foreign Languages Press; 1977.

(2) Solomon Richard; Mao's Revolution and the Chinese Political Culture; Berkeley; Calif. Univ. Press; 1971.

الظروف التى مرت بها المدينة خلال الفترة الاستعمارية[١] • فلقد كانت المدينة خلال تلك الفترة مقسمة الى أحياء أجنبية راقية محدودة ، وأخرى وطنية شعبية ممتدة • وكان من الضرورى القضاء على هذه « الازدواجية الحضرية » بتوسيع شوارع الاحياء الوطنية ومدها وتزويدها بالخدمات والمرافق ، مما أدى الى ازالة كثير من المبانى القديمة التى يتعارض وجودها مع متطلبات التخطيط الحضرى • ويشير بعض الدارسين الى ان مجموع أطوال شوارع مدينة شانغهاى قد ارتفع من مائتى ميل الى ألفى ميل فيما بين سنتى ١٩٤٩ و ١٩٧٢ • على أن التركز الصناعى فى شانغهاى على مدى فترة طويلة نسبيا قد أحدث بعض المشكلات الحضرية • ففى المدينة يعيش الآن أكثر من مليون ونصف عامل صناعى يعملون فى مختلف الصناعات كالحديد والصلب ، والآلات ، وبناء السفن ، والمركبات ، والغزل والنسيج • ولقد بذلت الحكومة الصينية جهودا ضخمة من أجل اعادة توزيع المواقع الصناعية على مناطق مختلفة ، وان كانت لم تحقق نجاحا كبيرا فى هـذا المجال بسبب قلة وسائل النقل وندرة رؤوس الاموال • وتحيط بالمدينة مساحات هائلة لانتاج الخضروات والفواكه التى يحتاج اليها سكانها ، كما أن كثيرا من المشروعات الصناعية تقع داخل نطاق المدينة ، مما يترتب عليه مشكلات بيئية كالتلوث والازدحام وتعقد شبكات المرور[٢] • ومع ذلك فان مشكلة التلوث فى شانغهاى لا تنطوى على خطورة بسبب قلة عـدد السيارات المستخدمة • ومن الطبيعى أن ينعكس ذلك على المسـافة بين منطقة السكن ومكان العمل • اذ أن استخدام الدراجات على نطاق واسع (كبديل للسيارات فى المدن الغربية) يجبر الافراد على الاقامة فى مساكن قريبة من أعمالهم • وفى شانغهاى وحدها أكثر من مليون دراجـة ، على الرغم من أن كثيرا من سكان المدينة مايزالون يتطلعون الى اليوم الـذى يقتنون فيه هذه المركبة التى تعتمـد فى حركتها على الطاقة الانسانية •

---

(1) Rhoads Murphey; Shanghai : Key to Modern China; Harvard University Press; Cambridge; Mass; 1953.

(2) John Palen; The Urban World; op. cit; p. 404.

وخلال سنوات الثورة الصينية واجهت شانغهاى ـ شأنها شأن المدن الأخرى ـ صعوبات بالغة فيما يتعلق بالاسكان • إذ أن سنوات الحرب والدمار لم تترك للفقراء سوى أكواخ صغيرة على طول شوارع المدينة • غير أن الثورة الصينية ما لبثت أن قامت بحركة تعمير واسعة النطاق • وعلى الرغم من أن المساكن الصينية مانزال تعانى من الازدحام ، الا أنها تتميز بالنظافة بسبب صيانة سكانها لها • ويستطيع كل سكان شانغهاى الحصول على المياه النقية والكهرباء ، كما أن الاسرة الصينية فى هذه المدينة لاتدفع أكثر من ربع دخلها كايجار للمسكن الذى تعيش فيه[1] •

أما بكين فقد ظلت عاصمة للصين لفترة طويلة متصلة ترجع الى سنة ١٢٦٧ ميلادية ، حيث تشغل مساحة تصل الى أربعة آلاف ميل مربع ويعيش فيها ما يربو على ستة ملايين نسمة[2] • وتمثل المدينة مزيجا من أحياء قديمة ، وأخرى بالغة الحداثة • أما ضواحيها فتشكل مجموعة من الكوميونات الريفية (المزارع الجماعية) التى تنتج الغذاء الضرورى لسكان المدينة • وخلال السنوات الاخيرة أقيمت مصانع عديدة على الاطراف الشرقية والجنوبية من بكين • وبسبب قلة السيارات الخاصة تحاول الحكومة الصينية اقامة المساكن العمالية بالقرب من المصانع • وفى بكين وحدها أكثر من مليون ونصف دراجة يستخدمها السكان فى تنقلاتهم اليومية • وتعيش الاسرة الصينية المكونة من أربعة أو خمسة أشخاص فى مسكن مؤلف من حجرتين أو ثلاثة ، كما تستطيع الحصول على المياه الجارية والكهرباء • وتشير معظم الدراسات الحديثة التى تناولت النمو الحضرى فى الصين الى أن هذه الدولة لم تشهد خلال السنوات الاخيرة « أزمة حضرية » من تلك التى عرفتها الدول النامية الاخرى • فعلى سبيل المثال لم تعرف المدن الصينية مشكلة البطالة التى عانت ـ ومانزال ـ

---

(1) Martin Richman; Industrial Society in Communist China; New York; Random House; 1969; p. 57.

(2) H. Ando; Peking; New York; 1968; p. 41.

منها المدن الهندية • كذلك فان المدن الصينية لم تعد تعرف الفوارق الطبقية الصارخة التى كانت أحد ملامحها الاساسية قبل الثورة • وفضلا عن ذلك تشير كل التقارير الحديثة التى تتناول الصين الى ان الغالبية العظمى من السكان يحصلون على الطعام الضرورى والمسكن الملائم ، وأن المدن تتميز بالنظافة والنظام • كذلك فان المدن الصينية لا تعرف كثيرا من المشكلات الحضرية الشائعة فى مدن الدول النامية والدول الغربيـة على السـواء كالجريمة والتسول والاغتصاب والسرقة والبغاء •

أما اليابان فانها تعبر عن واقع حضرى فريد فى قارة آسيا • ولعل السبب الرئيسى فى ذلك هو أن اليابان تعد واحدة من الدول الصناعية المتقدمة، وأنها بذلك وان كانت تنتمى الى آسيا مكانيا الا أنها تنتمى الى أوربـا الغربية وأمريكا الشمالية اقتصاديا وصناعيا • فاليابان — اذن — هى فى آسيا ، لكنها ليست منها • هى بريطانيا الشرق الاقصى كما يقال ، وهى تكاد تكون الدولة الآسيوية الوحيدة التى لم تخضع لخبرات استعمارية مباشرة • أما التقدم الاقتصادى الذى حققته اليابان منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبا فيعود الى الدور الذى لعبته الصفوة الحاكمة من أجل حشد كل الموارد الاقتصادية وتوجيهها نحو التصنيع[1] • ولقد لجأت حكومة الميجى Meiji التى تولت مقاليد الحـكم فى اليابان منذ سـنة ١٨٦٩ الى الفلاحين ففرضت ضرائب باهظة عليهم ، مما أدى بعد ذلك الى تحقيق فائض اقتصادى كان بمثابة نقطة انطلاق نحو حركة تصنيع واسعة النطاق • وخلال فترة حكم أسرة الميجى حققت المـدن اليابانية نمـوا سكانيا ملحوظا • فطبقا لتعريف الحضر فى اليابان (الوحدات التى يزيد عدد سكانها عن ١٠٫٠٠٠ نسمة) ، زادت نسبة السكان الحضريين اليابانيين

---

(1) William Lockwood; The Economic Development of Japan; Princeton University Press; 1954; p. 521.

وانظر ايضا السيد الحسينى ، « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى : السيد الحسينى وآخرين ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ص ١٢٦ وما بعدها .

من ٩ر٢٢٪ فى سنة ١٨٨٨ الى ٩ر٣١٪ فى سنة ١٩١٨ ، حتى وصلت الى ٩ر٤٩٪ فى سنة ١٩٤٠ • ومعنى ذلك أن عدد السكان الحضريين فى اليابان قد زاد من خمسة ملايين نسمة الى ٣٧ مليون نسمة خلال نصف قرن تقريبا • وخلال تلك الفترة شهدت اليابان توازنا ملحوظاً بين نمو الفائض الاقتصادى الزراعى وزيادة أحجام المدن[1] • وبنشوب الحرب العالمية الاولى اضطرت الحكومة اليابانية الى طرح كثير من المصانع فى شكل أسهم يمكن للافراد شرائها وتبادلها • وفيما بين سنتى ١٩٢٠ ، و١٩٤٠ تضاعف عدد سكان طوكيو والمدن اليابانية الرئيسية الاخرى • غير أن هذا النمو السكانى الحضرى كان موازيا لنمو صناعى حضرى بدا أوضح ما يكون فى اتساع نطاق حركة التصنيع وزيادة عدد العمال الصناعيين • وربما ساعدتنا مقارنة اليابان بالهند على توضيح بعض القضايا التى نثيرها فى هذا السياق • فخلال قرن من الزمان (منذ سبعينيات القرن التاسع عشر) حققت اليابان نموا اقتصاديا هائلا لم تستطع الهند تحقيق حده الادنى • كذلك فان المدن اليابانية قد نمت نموا وطنيا طبيعيا ، بينما خضعت المدن الهندية للتغلغل الاستعمارى مما كان له أكبر الاثر على تطوراتها اللاحقة • وأخيرا فان المدن اليابانية قد احتلت مكانة بارزة داخل البناء الاجتماعى اليابانى ، ليس فقط بسبب ارتفاع نسبة اليابانيين المقيمين فيها ، بل أيضا بسبب الدور الحضارى الذى لعبته هذه المدن على المستويين الاقليمى والقومى ، وهو الامر الذى طالما افتقدته المدن الهندية بسبب طابعها الطفيلى الذى هو أحد مخلفات الاستعمار البريطانى •

وتعرف اليابان نمطا من المدن يطلق عليه « مدن القلاع » castle-towns • وعلى الرغم من أن هذه المدن قديمة النشأة نسبيا ، الا أنها قد ظلت محافظة على أحجامها المتوسطة • هى بعبارة أخرى « الطبقة

---

(1) Irene Taeuber; «Population and Labor Force in the Industrialization of Japan»; in Simon Kuznets and Wilbert Moore (eds.) Economic Growth : Brazil; India and Japan; Durham; 1955; p. 325.

الوسطى من المدن اليابانية » • وتعد طوكيو وأوساكا حالتين فريدتين من « مدن القلاع » التى حققت نموا سكانيا ضخما[1] • ومع أن كثيرا من المدن اليابانية قد تحولت الى مراكز صناعية ضخمة ، الا أنها قبل التصنيع قد لعبت دورا تجاريا هاما فى بداية الأمر وحرفيا فى وقت لاحق • ولقد أوضحت بيانات الامم المتحدة (١٩٧٠) أن نسبة السكان الحضريين فى اليابان قد وصلت الى ٧٢ر٤٪ ، وأنها بذلك تماثل الولايات المتحدة فيما يتعلق بمعدل التحضر[2] • كذلك فان السكان الحضريين فى اليابان يميلون الى التركز الشديد • اذ يعيش ٤٥٪ من مجموع السكان فيما لا يزيد عن ١٪ من مساحة اليابان • وتشير البيانات السكانية الى أن ٥ر٢٤٪ من مجموع السكان اليابانيين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن مليون نسمة • وخلال القرن العشرين شهدت اليابان نمـــوا ملحوظا فى ضـــواحى مدنها الكبرى ، ثم ازداد هذا النمو شدة بعد الحرب العالمية الثانية وما نجم عنها من « تخريب حضرى » • واذا ما استشهدنا بمدينة أوساكا ، لاحظنا أن أكثر من ٤٠٪ من وحداتها السكنية قد تعرضت للتخريب والدمار بسبب الهجمات الجوية التى كانت تشنها عليها طائرات الحلفاء • وعلى الرغم من أن نسبة كبيرة من السكان الحضريين يملكون السيارات ويستخدمونها فى رحلاتهم للعمل ، الا أن الســكك الحديدية (من الضواحى الى المدينـــة وداخل المدينة ذاتها) مازال تستخدم على نطاق واسع من جانب لطبقتين الوسطى والدنيا •

وتضم اليابان أكبر منطقة ميتروبوليتانية فى العالم هى طوكيـــو — يوكوهاما حيث يعيش فيها أكثر من ٢٠ مليون نسمة • ومنـــذ منتصف خمسينيات القرن العشرين وطوكيو تضيف الى منطقتها الميتروبوليتانية حوالى ٢٧٥ر٠٠٠ شخص سنويا • أما ثلاثة أرباع هذا الرقم فتمثل الهجرة

---

(1) Norton Ginsburg; «Urban Geography and Non-Western, Areas; in P. Hauser and Leo Schnore (ed.); op. cit; p. 323.

(2) The World Population Situation in 1975; United Nations; New York; 1971; p. 64.

اليها من مختلف مناطق اليابان . والواقع أن « مجمع طوكيو ـ يوكوهاما » لا يشكل فقط أكبر منطقة حضرية ممتدة في العالم ، بل إنه أكثر المناطق الحضرية في العالم ازدحاما وتلوثا . فتلوث الهواء قد تحول الى مشكلة بيئية خطيرة بسبب ارتفاع معدلات الوفيات الناجمة عنه . ومثل هذا يقال أيضا عن تلوث المياه بسبب التخلص من فضلات الصناعات في مياه المحيط المحيطة بالجزر اليابانية . أما ازدحام المواصلات وتعقد شبكات المرور فقد أصبحا من أهم ملامح المدن اليابانية الحديثة . ففي طوكيو ـ مثلا ـ وصل زحام السيارات في الطرق العامة حدا لا تكاد تعرفه مدينة معاصرة . كما أن الدراسات الحديثة التي تناولت المشكلات الحضرية في اليابان قد أوضحت أن المدن تعاني من أزمات حادة فيما يتعلق بالاسكان والخدمات العامة . وخلال السنوات الاخيرة تم ردم أجزاء من خليج طوكيو وتخصيصها لاقامة المنشآت الصناعية . أما بقية الجزر التي مازالت باقية داخل الخليج فقد أصبحت مستودعا لمخلفات المدينة ، مما أدى الى عواقب بيئية وخيمة[1] .

والواقع أن المشكلات التي تعاني منها المدن اليابانية هي مشكلات « غربية » أكثر منها « آسيوية » . ذلك ان المدن اليابانية تنتمي الى المدن الصناعية المتقدمة ، وتعاني ـ بالتالي ـ من مشكلات « ما بعد الصناعة » ، كما أن معدل التحضر في اليابان لا يعبر عن آسيا بقدر ما يعبر عن أوربا الغربية وأمريكا الشمالية . ويبدو أن كثيرا من المشكلات الحضرية التي تعاني منها اليابان جاءت نتيجة للقرار الذي اتخذه اليابانيون بعد الحرب العالمية الثانية ، ذلك القرار الذي طالب بجعل اليابان أمة صناعية « مصدرة » مرتبطة بالعالم الحر . ولم تهتم الحكومة اليابانية ـ بسبب

---

(1) R. B. Hall; «The Cities of Japan : Notes on Distribution and Inherited Forms» in P. Abrams and E. Wrigley (ed:) Towns in Societies; Cambridge University Press; 1978; p. 140.

هذه الرغبة المحمومة فى التصنيع ــ بتطوير هياكلها الحضرية (النقل والمياه والمجارى والاسكان ... الخ) • فحتى سنة ١٩٦٢ لم يكن نظام الصرف الصحى قد شمل كل أنحاء مدينة طوكيو بحيث أن أكثر من مليون ونصف من سكانها كانوا يتخلصون من فضلاتهم بطريقة بدائية للغاية لا تتسق تماما مع واقع مجتمع صناعى ــ حضرى • وبرغم ذلك كله فان الواقع الحضرى اليابانى ليس قاتما تماما[1] • فاذا كانت اليابان تعانى من مشكلات حضرية حادة ، فانها تمتلك أيضا من الموارد ما يمكنها من مواجهتها ، ذلك أنها (أى اليابان) تمتلك التكنولوجيا والكفاءات الفنية والموارد المالية التى تمكنها من النهوض بمدنها الحالية واقامة أخرى جديدة ، كما أن هناك من الشواهد ما يشير الى أن الحكومة اليابانية قد بدأت خلال السنوات الاخيرة تولى الاستثمارات الاجتماعية الحضرية أهمية كبيرة • ويكاد ينطبق ذلك على بعض الدول الآسيوية الصغيرة التى تمثل « جيوبا غربية » داخل آسيا كما هو الحال بالنسبة لهونج كونج وسنغافورة •

وفى ختام مناقشتنا يمكننا تناول مدن جنوب شرق آسيا • ولعل أول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال هو افتقاد هذه المدن لطابع مميز فريد • فهى اما ذات طابع صينى أو ذات طابع أوربى أو أنها تجمع بنسب مختلفة بينهما • والواقع أن تاريخ جنوب شرق آسيا ليس « تاريخيا حضريا » ، كما أن معدلات التحضر قد ظلت منخفضة لفترة طويلة • فمن بين ٢٢٠ مليون نسمة يعيش ٢٥ مليون فقط فى مناطق حضرية • على أننى لا أقصد بذلك القول بأن منطقة جنوب شرق آسيا خالية من المدن الكبرى • إن عكس ذلك هو الصحيح تماما • فلقد أنشأ المستعمرون الاوربيون عددا من المدن الساحلية التى كتب لها ــ فيما بعد ــ النمو والازدهار كما هو الحال بالنسبة لبانكوك فى تايلاند ، وان كنا لا نلحظ ذلك تماما بالنسبة لبعض المدن الاخرى كما هو الحال بالنسبة لجاوة فى أندونيسيا ، حيث ظل

(1) John Palen; The Urban World; op. cit; p. 410.

المستعمرون الهولنديون يقاومون نموها • وتتميز مدن جنوب شرق آسيا بحداثة نموها ، برغم أنها قد تطورت من خلال « نويات حضرية » قديمة نسبيا[١] • وعلى أية حال فان عمر كثير من هذه المدن لا يزيد عن قرن الا بالكاد • وتنقسم معظم هذه المدن الى أحياء « غربية » وأخرى « وطنية »• أما الاحياء الغربية فهى الاحياء التجارية الهامة ، بينما تظل الاحياء « الوطنية » محافظة على طابعها التقليدى الذى نكاد نلمسه فى بقية المدن الآسيوية • ومن الملامح العامة المميزة لمدن جنوب شرق آسيا الجماعات العنصرية أو العراقية التى تكاد تعيش فى أحياء مستقلة ، وان كانت الاحياء الصينية هى أبرزها وأهمها • ولعل ذلك يفسر تركز الحياة التجارية لهذه المدن داخل الاحياء الصينية • واذا كانت هذه المدن تشترك مع بقية مدن آسيا فى جاذبيتها للمهاجرين وظهور أحياء واضعى اليد على أطرافها ، الا أنها لا تعرف الاتجاه نحو الضواحى بسبب تخلف شبكات المواصلات والنقل[٢] • وتشترك مدن جنوب شرق آسيا مع بقية المدن «النامية» فى كثير من مشكلاتها الحضرية • فعلى أطرافها تنمو أحياء « الصفيح » و « الخشب » و « الكرتون » وكل ما هو متاح من مواد بناء مؤقتة • ففى مانيلا تتخذ هذه المشكلة وضعا حادا• إذ تضم هذه المدينة أكثر من١٣٠ر٠٠٠ نسمة يعيشون فى أحياء واضعى اليد وهو رقم يكاد يشكل ربع عدد سكان المدينة • وتمتد هذه الاحياء لمسافة أربعين كيلو مترا على حدود مانيلا تتخللها أكوام القضلات والبرك الآسنة • وحينما تهب عاصفة قوية تكاد تختفى معها معالم هذه الاحياء ، ثم ما تلبث أن تتعرض للطمس اذا ما تعرضت لفيضانات كاسحة •

وتعد سايجون حالة معبرة عن مدن جنوب شرق آسيا • اذ يرجع التاريخ الحضرى لهذه المدينة الى سنة ١٨٥٩ ، حينما استولى الفرنسيون

---

(1) Norton Ginsburg; «Urban Geography and Non-Western Areas; in P. Hauser and Leo Schnore; op. cit; p. 332.

(2) Norton Ginsburg; «The Great City in Southeast Asia»; American Journal of Sociology; 60; 1955; p. 459.

على موقعها الذى لم يكن يتجاوز عدة أكواخ تسكنها مجموعة من الاسر الوطنية • وعلى هذا الموقع أقام الفرنسيون مدينة سايجون لتكون عاصمة ادارية يديرون من خلالها شئون البلاد • وما لبث الحى الصينى أن حقق نموا مصاحبا لنمو المدينة بوجـــه عام ، حتى أصبح ـــ بمرور الوقت ـــ مركزا تجاريا • ومعنى ذلك أن سايجون قد أصبحت العاصمة الاستعمارية التى كانت تدير من خلالها فرنسا تلك المنطقة الصينية التى عرفت فيمـــا بعد باسم فيتنام • وخلال تلك الفترة تطورت أحياء الفرنسيين واتخـــذت الملامح الغربية ، بينما ظلت الاحياء الصينية تعكس الطابع الآســـيوى التقليدى • وفى سنة ١٩٣٢ ضم الفرنسيون أحياءهم وأحياء الصينيين فى اطار ادارى واحد • وقبل الحرب العالمية الثانية مباشرة أصبحت الغالبية العظمى من ســـكان سايجون من الصينيين[1] • ففيما بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٥٣ ازداد عدد السكان الصينيين فى سايجون من ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة الى ١ر٤٠٠ر٠٠٠ نسمة • غير أن الحروب المستمرة التى خاضتها فيتنام قد أدت الى زيادة معدلات الهجرة من المناطق الريفية الى سايجون ، حتى وصل عدد سكان المدينة فى سنة ١٩٦٧ الى ثلاثة ملايين نسمة • ولقـــد أصبحت سايجون بذلك واحدة من أكثر مدن العالم ازدحاما ، كما أنها تعـــد مثالا جيدا على المشكلات الحضرية التى تعانى منها الدول النامية بوجه عام • فعلى أطرافهـــا تتمدد أحيـــاء « الخشب » و « الكرتـــون » التى كثيرا ما تتعرض للحرائق • ومانزال نتذكر حتى الآن ذلك الحريق الرهيب الذى شب فى هذه الاحياء فى منتصف الستينيات موديا بحياة أكثر من ٣٠ر٠٠٠ فيتنامى • أما عن تأثير التدخل الامريكى فى فيتنام وانعكاساته الحضرية فلا يحتاج منا لاكثر من عبارة واحدة هى : التدمير الحضرى •

---

(1) John Palen: The Urban World; op. cit; p. 411.

الفصل السابع

أفريقيـــا

بفضل حضارة وادى النيل عرفت أفريقيا أقدم المراكز الحضريـــة التى شهدها العالم[1] • فمنذ أكثر من خمسة آلاف عام أقام المصريون عددا من المراكز الحضرية التى كان لهـــا أكبر الأثر فى تدعيم السيطرة السياسية التى كانت تمارسها الحكومة على مختلف أنحـــاء البلاد • ومن ممفيس الى تل العمارنة ظهرت مجموعة من العواصم السياسية التى مانزال نشاهد أطلالها حتى الآن • وتشير الشواهد الاركيولوجية الى أن المدن المصرية التى ظهرت فى دلتا النيل قد اتخذت بناءات اجتماعية تعكس قدرا كبيرا من التخصص المهنى • فبالاضافة الى الصفـــوة الحاكمة ضمت المدن جماعات عديدة من بينها : رجال الدين ، والتجار ، والصناع ، وأصحاب المحلات ، والموظفين الاداريين • وحوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد بدأت بعض المراكز التجارية الصغيرة المحدودة تنمـــو على الشاطئ الشمالى لافريقيا بفضل النشاطات التجارية التى كان يقوم بها الفينيقيون على طول ساحـــل البحر المتوسط ، والتى استمرت لقرن كامل تقريبا • وباحتلال الرومان لقرطاجة فى سنة ١٤٦ قبل الميلاد ســـاد « السلام الرومانى » لسبعة قرون كاملة •ولقد كان الرومان هم أول من استغلوا افريقيا على نطاق واســـع وزرعوا فيها بعض النويات الحضرية على طول شاطئهـــا الشمالى • واذا كان الرومان قـــد حطموا قرطاجه ، الا أنها ما لبثت أن

---

(١) سنقصر معالجتنا فى هذا الفصل على المدن فى أفريقيا جنوب الصحراء وشمال افريقيا . اما المدن المصرية والليبية فسنتناولها فى الباب التالى الـــذى سنخصصه لمناقشة المدن فى منطقة الشرق الاوسط . واذا كنا نشير هنا الى الدور الذى لعبته حضارة وادى فى نشـــأة المدن فى افريقيا ، فان ذلك بهدف ابراز الملامح التاريخية للتحضر فى هذه القارة .

حققت ازدهارا ملحوظا فى فترة لاحقة حتى وصل عدد سكانها الى حوالى ١٠٠ر٠٠٠ نسمة[1] • على أن المراكز الحضرية التى أقامها الرومان على الساحل الشمالى لافريقيا كانت بمثابة وسيلة للسيطرة السياسية على المناطق الافريقية الداخلية • وفى أواخر القرن الخامس الميلادى فقد الرومان سيطرتهم على المدن الافريقية الساحلية الشمالية ، مما أدى الى انكماش التجارة وانهيار الثقافة الحضرية التى كانت قد حققت قدرا من الازدهار • وخلال القرن السابع الميلادى وصل العرب من شبه الجزيرة العربية الى الشاطىء الشمالى الافريقى • وعلى الرغم من أن المراكز الحضرية الافريقية الشمالية لم تحقق نموا مباشرا بعد الفتح الاسلامى ، الا أنها ما لبثت خلال القرنين الثامن والتاسع أن تحولت الى موانى تجارية ضخمة ، محققة بذلك بداية فترة طويلة متصلة من الازدهار الحضرى •

واذا ما اتجهنا نحو افريقيا جنوب الصحراء وجدنا عددا من الممالك القديمة التى كانت تعتمد فى سيطرتها على مجموعة من العواصم المركزية • وفى معظم الاحيان كانت هذه العواصم تعتمد فى نموها على مدى انتعاش تجارة الذهب والعاج والجلود • وهنا يتعين الاشارة الى المكانة التى حققتها مدن غرب السودان خلال فترة مبكرة نسبيا وعلى الاخص بعد الفتوحات الاسلامية • فعلى ضفاف نهر النيجر ظهرت مدينة تيمبوكتو Timbuktu التى كانت تشكل مركزا ثقافيا هاما • وبتوغلنا جنوبا يمكننا أن نجد عددا من المراكز الحضرية القديمة نسبيا مثل كانو وكاتسينا وباماكو وسيجو • كذلك فان بعض هذه المراكز قد حققت نموا سكانيا ملحوظا كما هو الحال بالنسبة لمدينة أوكوماسى • وفيما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر نمت بعض مدن غرب أفريقيا نموا واضحا من أمثال سان لويس ومونروفيا ولاجوس وفريتاون وداكار وأكرا • ومانزال هذه المدن تحمل حتى الآن بصمات الماضى سواء فيما يتعلق بخططها الحضرية أو

---

(1) Peter Gutkind; Urban Antropology; Van Gorcum & Comp. B. V - Assen; The Netherlands; 1974; p. 12.

ثقافاتها الوطنية • وعلى الشاطىء الشرقى من أفريقيا ظهرت بعض علامات التركز الحضرى فى فترة مبكرة نسبيا ، على الرغم من أن البحوث الاركيولوجية لم تتوصل حتى الآن الى أهم نتائجها فى هذا المجال • لقد ظل هذا الشاطىء الشرقى لفترة طويلة ملتقى لشعوب جنوب غرب آسيا والهند وربما الشرق الاقصى أيضا • أما أهم الموجات السكانية التى تعرض لها هذا الشاطىء فكانت تلك الموجات العربية الاسلامية التى تدفقت عليه خلال القرن السابع الميلادى[1] • ولقد فضل كثير من الفاتحين العرب الاقامة الدائمة على هذا الشاطىء حيث استطاعوا ممارسة التجارة على نطاق واسع بما فى ذلك تجارة العبيد • وربما كان ذلك أحد أسباب تنوع الاصول الاثنولوجية لسكان شرق أفريقيا حيث نجد كثيرا من الملامح العربية والافريقية والهندية[2] •

والواقع أن كثيرا من معلوماتنا الحالية عن المدن الافريقية القديمة قد تم التوصل اليها خلال العقود القليلة الماضية • ولا نستطيع هنا تجاهل الدور الذى لعبه الاستعمار فى هذا المجال • فلقد حال دون نمو المدن الافريقية بحجة أن العقلية الافريقية ليست « عقلية حضرية » • وربما كان ذلك هو السبب الذى دفع جمال حمدان الى القول بأن العواصم التاريخية (أو القديمة) تكاد تكون مقصورة على أفريقيا العربية ، وأن العواصم الوطنية (التى ظهرت خلال العصور الوسطى) لم تكن أكثر من همزة وصل بين العواصم التجارية والعواصم التى أقامتها القوى الاستعمارية[3] • وتميل بعض الدراسات الى تأكيد الدور الافريقى الخالص فى نشأة التحضر

---

(1) R. Oliver and G. Mathew (eds.); History of East Africa; Oxford; 1963.

(2) J. L. Gibbs (ed.); Peoples of Africa; New York; 1965 p. 90.

(3) G. Hamdan; «Capitals of the New Africa»; in G. Breese; (ed.) The City in Newly Developing Countries; Princeton University Press; 1972; pp. 146-161.

الافريقى[١] • فعلى سبيل المثال تحولت تيمبكتو (التى لا يزيد عدد سكانها الآن عن ٦٠٠٠ نسمة) الى مدينة ضخمة ، وان كان ذلك لم يستمر إلا لفترة محدودة • وربما كانت الاسكندرية هى أقدم مدن شمال أفريقيا • اذ ظلت لعدة آلاف من السنين محافظة على طابعها وتقاليدها الحضرية • واذا كان الاسكندر الاكبر قد منحها اسمها الحالى فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، الا أن المدينة ذاتها كانت قد نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف عام • ويبدو أن الاسلام قد لعب الدور الحاسم فى استمرار نمو بعض المدن الافريقية • فالملاحظ أن المدن التى نشأت مع الفتح الاسلامى هى تلك التى تمكنت من الاستمرار فى الوجود حتى الآن كما هو الحال بالنسبة لفاس والجزائر فى الشمال وكانو فى شمال نيجيريا • أما مدن اليوروبا التى ظهرت فى جنوب غرب نيجيريا فلم تعمر طويلا ، بينما نجد مدنا مثل مقديشيو (الصومال) ومباسا (كينيا) قد استمرت فى النمو لفترة طويلة بسبب انتعاشها كمراكز تجارية اسلامية •

ولقد كان البرتغاليون من أوائل الاوربيين الذين وطأوا أرض أفريقيا جنوب الصحراء • فخلال القرن السادس عشر أسسوا عددا من المستعمرات الاوربية على السواحل الافريقية • وكانت هذه المستعمرات أقرب ما تكون الى القلاع التجارية الحصينة التى تقوم بجمع المحاصيل الزراعية وتكديس المواد الخام ثم شحنها بعد ذلك الى أوربا • بيد أن جهود البرتغاليين من أجل التوسع داخل أفريقيا قد باءت بالفشل • فاذا كانوا قد نجحوا فى التوغل داخل الحبشة بفضل بعثاتهم التبشيرية وقوافلهم التاريخية ، الا أنهم ما لبثوا أن ردوا على أعقابهم[٢] • ومن

---

(1) A. L. Mabogunjie; «The Pre-colonial Development of Yoruba Towns;» in D. J. Dwyer (ed.) The City in the Third World; The Pitman Press; London; 1974; pp. 56-35.

(٢) يمكننا أن نجد تحليلا تاريخيا ضافيا للتوسع البرتقالى فى افريقيا فى جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٩ •

المحقق ان الاوربيين قد ظلوا حتى القرن التاسع عشر غير حريصين على اقامة مراكز حضرية دائمة ومتطورة • وخلال الربع الاخير من ذلك القرن بدأ الاوربيون فى التعجيل بالسيطرة الفعلية على أفريقيا • إذ اندفع البريطانيون والفرنسيون والالمان والبلجيك صوب هذه القارة فاقتسموها وحولوها الى مستعمرات تابعة لهم • لذلك فان المدن الافريقية التى نعرفها الآن كانت نتيجة لانجازات هذه الحقبة الاستعمارية • إذ بدأت كل مستعمرة من المستعمرات الافريقية تحرص على وجود عاصمة ادارية ــ سياسية تعبر عنها • واذا ما تتبعنا تواريخ نشأة هذه المدن ، وجدنا معظمها فى تلك الفترة (أى الربع الاخير من القرن التاسع عشر) : أكرا (١٨٧٦) ، أبدجان (١٩٠٣) ، برازفيل (١٨٨٣) ، كنشاسا (١٨٨١) ، كامبالا (١٨٩٠) ، نيروبى (١٨٩٩) ، جوهانسبيرج (١٨٨٦) • وتكاد تكون كل المدن الافريقية التى ظهرت خلال تلك الفترة ذات نشأة استعمارية باستثناء مدينتين ذات طابع وطنى هما : أديس أبابا (١٨٨٦) وأم درمان (١٨٨٥)• وعلى الرغم من ذلك كله فان معظم المدن الافريقية المعاصرة قد نشأت خلال القرن العشرين ، ذلك أن الزيادة الكبيرة فى عدد السكان الحضريين فى أفريقيا جنوب الصحراء لم تتم الا منذ ثلاثة عقود تقريبا • وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية كانت معظم المدن الافريقية صغيرة الحجم نسبيا • فاذا ما استشهدنا بنيروبى ــ التى تعد واحدة من المدن الافريقية الحديثة ــ وجدنا أن عدد سكانها فى سنة ١٩٢٠ لم يكن يزيد عن ٢٠٫٠٠٠ نسمة ، ثم ارتفع الى ٣٣٫٠٠٠ نسمة فى سنة ١٩٣٠ • وما لبث عدد السكان أن حقق قفزة كبيرة فى الخمسينيات حتى وصل الى ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة • أما الآن فقد وصل عدد سكان المدينة الى أكثر من ٦٠٠٫٠٠٠ نسمة • ويكاد ينطبق هذا النمط من النمو الحضرى على كثير من المدن الافريقية الاخرى[1] •

---

(1) John Palen; The Urban World; McGraw-Hill Book Company: New York; 1972; p. 359.

ولقد بذل بعض الباحثين جهدا كبيرا من أجل التمييز بين أنماط المدن الافريقية واستخدموا فى هذا المجال معايير ثقافية وقبلية ودينية واقتصادية • غير أننى أميل الى التمييز بين نمطين أساسيين من المدن الافريقية : مدن وطنية أقامها الافريقيون ، ومدن استعمارية غربية أسسها الاوربيون • وعلى الرغم من أن هذا التمييز قد لا يكون دقيقا فى بعض الحالات الخاصة التى يختلط فيها الاوربيون بالافريقيين ، الا أنه قد يصلح للتفرقة بين نمطين حضريين بارزين • وتبدو المدن الوطنية أوضح ما تكون فى شمال أفريقيا وغربها • وربما اعتبرت مدن اليوروبا من أشهر المدن ذات النشأة الافريقية • وتضم معظم هذه المدن أعدادا كبيرة نسبيا من السكان ، على الرغم مما يذهب اليه بعض الدارسين من أن هذه المدن لا تعدو أن تكون تجمعات كبيرة من السكان الزراعيين . أو ان شئنا الدقة مجموعة قرى متجاورة • ويطلق على هذه التجمعات مسميات عديدة من بينها : « المدن الريفية » أو « القرى المتحضرة » • أما البناء الايكولوجى للمدينة الافريقية الوطنية فلا يعكس قدرا كبيرا من التباين[1] • ففى وسطها يقع السوق المركزى الذى غالبا ما يكون ساحة ضخمة مفتوحة من كل الجهات ، خالية تقريبا من المحلات المتخصصة التى تتخذ مواقع دائمة • وعلى مقربة من السوق يوجد قصر الرئيس أو الامير الحاكم • واذا ما كانت المدينة الوطنية ذات طابع اسلامى ، فان المسجد غالبا ما يقع فى وسطها • وحول هذا الوسط تنتشر مساكن كبار الموظفين والاعيان • ويكاد يتمتع كل حى من أحياء المدينة الوطنية بقدر كبير من الاستقلال • ومن الطبيعى أن تلعب الانتماءات القبلية والدينية دورا هاما فى تحديد الطابع الايكولوجى للمدينة • فالاسوار والبوابات تفصل — فى كثير من الاحيان — الاحياء عن بعضها البعض • أما الشوارع فلا تكاد تسمح الا بمرور الانسان والحيوان بسبب ضيقها وتعرجها • ومن

(1) A. L. Epstein; «Urban Communities in Africa»; in M. Gluckman; (ed.); Closed Systems and Open Minds : the Limits of Naivety in Social Anthropology; Chicago; 1964; pp. 83-102.

النادر أن تضم مساكن هذه المدينة الوطنية أكثر من طابقين • أما مواد بناء المساكن فهى محلية وبدائية الى حد كبير • وحينما بدأت القوى الاستعمارية تفرض سيطرتها على هذه المدن الوطنية ، ظهرت مناطق ادارية ذات طابع غربى ، مما أدى الى شق بعض الطرق الرئيسية التى كان يجب أن تتخلل الاحياء القديمة • أما المناطق التى كان يقيم فيها الاوربيون فكانت منفصلة تماما عن تلك التى يقيم فيها الوطنيون • غير أن مناطق الاوربيين ما لبثت أن تحولت بمرور الوقت الى أحياء تجارية حديثة[١] •

أما المدن الافريقية ذات النشأة الاوربية الاستعمارية فتختلف ــ فى كثير من الوجوه ــ عن المدن الافريقية ذات النشأة الوطنية • فالمدن الاولى تبدو وكأنها صورة مصغرة من المدن الغربية ســواء من حيث خططهــا الايكولوجية أو تنظيمها الاجتماعى • ففى أكرا ــ مثلا ــ تعيــد مساكن الاوربيين الى أذهاننا الفن المعمارى الذى سيطر على بريطانيا فى عصرهــا الفيكتورى • وتكاد تكون هذه المدن مخصصة للاغراض السكنية للاوربيين ، حتى أن الافريقيين لا يملكون حق التجول فيها ليلا • وفى وسط المدينة يقع الحى التجارى الذى يضم المحلات التجارية المتخصصة ، والهيئات الادارية الاستعمارية ، فضلا عن الفنادق والبنوك • أمــا الاحياء التى يســكنها الافريقيون فى هذه المدن ذات النشأة الاوربية فغالبا ما تقع على أطرافها ، بينما يضطر الافريقيون الذين يعملون داخل أحياء الأوربيين الى التوجــه اليها للعمل فى الصباح ثم يعودون الى مساكنهم النائية فى المســاء[٢] • وتصل حالات التفرقة العنصرية « الحضرية » أقصاها فى دولة كجنــوب أفريقيا ، حيث نجد فصلا مكانيا واجتماعيا وثقافيا بين الاحياء التى يعيش فيهــا كل من الاوربيين والافريقيين والهنــود والملونين (ذوى الاعراق المختلطة) • ويكاد يكون العرق هو أحد المعالم الاساسية المميزة لمــدن

---

(1) Krapf-Askari; Yoruba Towns and Cities; London; 1969.

(2) M. Freilich (ed.) Marginal Natives : Anthropologist at Work; New York; 1970.

جنوب أفريقيا • ففى ضوئه يتحدد التوزيع المكانى للمدن[١] • ومعنى ذلك أن الطبقة أو الثقافة تكاد تلعب دورا ثانويا فى هذا المجال اذا ما قورن بالدور الذى يلعبه العرق •

وبرغم الاختلافات الملحوظة بين المدن الافريقية ، الا أن هناك وجوه شبه عديدة بينها لا يمكن تجاهلها • فمعظم هذه المدن حديثة النشأة بحيث لا يعود تاريخها لأكثر من قرن من الزمان • كما أن عددا كبيرا منها قد نشأ فى بداية الامر كمراكز استعمارية ادارية صغيرة من خلالها يمكن السيطرة على موارد القارة وسكانها[٢] • واذا كانت بعض المدن الافريقية مثل دار السلام (تنزانيا) وسان لويس (السنغال) ومونروفيا (ليبيريا) نشأت فى فترة مبكرة نسبيا ، فان ذلك هو الاستثناء لا القاعدة • وهذا يعنى أن كثيرا من المدن الافريقية تفتقد التقاليد الحضرية الراسخة التى عرفتها بعض المدن الاخرى فى آسيا وأمريكا اللاتينية على نحو مارأينا فى الفصلين السابقين • وفضلا عن ذلك فان المدن الافريقية تشترك فى خاصية عامة هى تنوع الاصول الاثنولوجية لسكانها • ففى بعض الاحيان قد تضم المدينة الواحدة عددا هائلا من الجماعات العرقية المتباينة • ومن شأن ذلك أن يؤثر على البناء الايكولوجى والتنظيم الاجتماعى فى المدينة الافريقية • أما الخاصية الديموجرافية التى تكاد تكون القاسم المشترك الاعظم بين المدن الافريقية فهى ارتفاع نسبة الجماعات العمرية الشابة بسبب ارتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية وانخفاض متوسطات الاعمار عموما • فمن المألوف أن نجد أكثر من ٦٠٪ من سكان المدينة الافريقية ممن تقل أعمارهم عن خمسة وثلاثين عاما • ومن الصعب فى هذا الفصل القصير أن نناقش بالتفصيل النتائج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المترتبة على اختلال البناء العمرى فى المدن الافريقية • إلا أننا

---

(1) R. Rotberg and Mazrui (eds.) Protest and Power in Black Africa; New York; 1970.

(2) R. Dumont; False Start in Africa; New York; 1966.

نستطيع القول بأن مدنا شأنها هكذا لابد وأن تشهد جماعات عمرية شابة تتميز بمطامح عالية ، لكنها غالبا ما تفشل فى تحقيقها بسبب ضيق البنـاء المهنى الحضرى ، وافتقاد أفراد هذه الجماعات للمهارات التى تمكنهم من تحقيق مطامحهم[1] • كذلك فان المدن الافريقية تشهد اختلالا موازيا فى التوزيع النوعى للسكان (ذكور ــ اناث) • إذ ترتفع نسبة الذكور ارتفاعا مذهلا ، مما يخلق بالتالى مشكلات اجتماعية وشخصية عديدة •

وتشهد أفريقيا تناقضا حضريا لافتا • فعلى الرغم من أنها أقل قارات العالم « تحضرا » اذا ما أخذنا فى الاعتبار نسبة السكان الذين يعيشـون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠ر٠٠٠ نسمة ، الا أنها تشهد نموا حضريا يفوق ما تشهده بقية قارات العالم اذا ما أخذنا فى الاعتبار معدلات نمـو السكان الحضريين خلال العقود الثلاث الماضية • ففى سنة ١٩٧٠ بلغت نسـبة السكان الافريقيين الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠ر٠٠٠ نسمة حوالى ٢١٪ فى مقابل ١١٪ بالنسبة للذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ١٠٠ر٠٠٠ نسمة[2] • وبرغم انخفاض هاتين النسبتين ، الا أن قـارة أفريقيا قد شهدت فيما بين سنتى ١٩٦٠ و ١٩٧٠ نمـوا سكانيا حضريا سريعا وصل الى ٧ر٤٪ • واذا كانت هذه النسبة تعبر عن معدل النمـو الحضرى على مستوى القارة ، الا أننا نجـد هذا المعدل بالنسبة لبعض المدن يصل الى مدى يتراوح فيما بين ٧٪ و١٠٪ • والواقع أن معدلات التحضر هذه تعد واحدة من أعلى المعدلات التى يشهدها عالمنا المعاصر • وفى سنة ١٩٧١ بلغ عدد سكان قارة أفريقيا ٣٥١ر٧٣٤ر٠٠٠ نسمة ، ومعدل

---

(1) S. Tangri; «Urbanization; Political Stability; and Economic Growth;» in J. Finkle and R. Gable (eds.) Political Development and Social Change; John Wiley & Sons; Inc; 1971; pp. 212 - 217.

(2) United Nations; The World Population Situation in 1970; 1971; p. 65.

زيادة طبيعية يصل الى ٦ر٢٪ سنويا[1] • ولو افترضنا استمرار هذا المعدل من الزيادة الطبيعية ، فان سكان أفريقيا سوف يتضاعفون قبل سنة ٢٠٠٠ ميلادية • ويعود ارتفاع معدل الزيادة الطبيعية الى ارتفاع معدل المواليد ، والانخفاض النسبى (برغم استمرار ارتفاعه) فى معدل الوفيات • واذا ما استمر معدل الوفيات فى الانخفاض بنسبة أسرع من معدل المواليد ، فان نسبة الزيادة الطبيعية ستميل الى الارتفاع أكثر من ميلها الى الانخفاض • وباستثناء غانا وكينيا لا تكاد تعرف دول أفريقيا جنوب الصحراء أساليب تحديد النسل مما قد يعرض هذه القارة لانفجار سكانى محتمل •

وهناك اختلافات اقليمية واضحة فيما يتعلق بمعدلات التحضر فى أفريقيا • ففى شمال أفريقيا (الجزائر والمغرب وتونس وليبيا) يرتفع معدل التحضر اذا ما قورن بمعدل التحضر فى جنوب الصحراء • إذ يتراوح هذا المعدل بالنسبة للدول الافريقية الواقعة على البحر المتوسط فيما بين ٢٠٪ و ٤٠٪ (طبقا لعدد السكان الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠٠٠٠ نسمة)[2] • ومن اليسير تفسير ذلك فى ضوء الظروف التاريخية التى مرت بها هذه الدول الافريقية الشمالية • إذ أنها كانت أكثر احتكاكا بالحضارات المختلفة ، فضلا عن مكانتها التجارية التاريخية التقليدية • واذا ما اتجهنا جنوبا وجدنا اما مناطق جبلية أو صحراوية لا تساعد على النمو الحضرى • وفى غرب أفريقيا ووسطها نجد معدلات تحضر « متوسطة » (بالرغم من انخفاضها الشديد عن المعدلات العالمية) حيث تتراوح فيما بين ٥٪ و ٢٠٪ (طبقا لعدد السكان الذين يعيشون فى مدن يزيد حجمها عن ٢٠٠٠٠ نسمة) • أما المدن الكبرى فهى تلك التى تقع على

---

(1) United Nations Economic Commission for Africa; Demographic Handbook of Africa; Addis Ababa; 1971; p. 12.

(2) Gerald Blake; «Urbanization in North Africa : Its Nature and Consequences»; in D. Dwyer (ed.) The City in the Third World; Pitman Press; London; 1974; pp. 67-80.

الساحل أو فى منطقة يسهل الوصول اليها • وتعود نشأة معظم هذه المدن الى الحقبة الاستعمارية • وربما كانت نيجيريا من بين دول غرب إفريقيا التى تمتلك مدنا ضخمة الحجم نسبيا • أما منطقة شرق أفريقيا فهى أقل مناطق القارة « تحضرا » • أما أعلى معدلات التحضر فى شرق أفريقيا فنجدها فى زامبيا حيث يصل المعدل الى ١٠٪[1] ، بينما لا يزيد هذا المعدل فى تنزانيا عن ٥٪ بالنسبة لمجموع السكان الحضريين و ٣ر٢٪ بالنسبة لسكان المدن التى يزيد حجمها عن ١٠٠ر٠٠٠ نسمة • وتكاد تكون حالة تنزانيا معبرة الى حد ما عن الموقف الحضرى فى معظم أنحاء شرق أفريقيا • أما التحضر الفريد الذى تتميز به أفريقيا فهو الذى تعرفه جمهورية جنوب أفريقيا • إذ يصل المعدل فيها الى ٤٥٪ • والواقع أن هذه الدولة وان كانت تنتمى الى أفريقيا جغرافيا ، الا أنها تنتمى الى أوربا الغربية ثقافيا وحضاريا إن لم نقل تحضرا • واذا كنا قد وجدنا فى جمهورية جنوب أفريقيا أعلى معدلات التحضر (٤٥٪) ، فاننا نجد فى بوروندى أقل معدلات التحضر (٢ر٢٪) •

وخلال عقد الستينيات من هذا القرن حصلت ثلاثين دولة أفريقية على استقلالها السياسى ، حيث بدت العواصم السياسية بالنسبة للقادة الأفريقيين الوطنيين وكأنها خير معبر عن هذه الكيانات السياسية الجديدة • لذلك فان مفهوم « المدينة الاولى » يكاد ينطبق على أفريقيا أكثر من أية قارة أخرى • فالعواصم السياسية الافريقية تلعب أدوارا ثقافية وادارية وصناعية وتجارية بالغة الاهمية • ويكاد ينطبق ذلك على معظم المدن الافريقية • ففى السنغال ــ مثلا ــ تضم داكار ١٦٪ من مجموع سكان الدولة ، بينما تستهلك ٩٥٪ من الطاقة الكهربائية التى تمتلكها البلاد ، كما تضم ثلاثة أرباع العمال الصناعيين السنغاليين ، وأكثر من نصف عمال النقل والخدمات • وينطبق ذلك على لاجوس • فعلى الرغم من ان هذه

---

(1) United Nations Economic Commission for Africa; World Population Prospects 1965-1980; Addis Ababa; 1969; pp. 56-57.

المدينة هى مجرد واحدة من المدن النيجيرية العديدة حيث تضم ١٪ من مجموع سكان الدولة ، الا أنهـا تحصل على ٤٦٪ من مجمـوع الطاقـة الكهربائية فى نيجيريا ، وتمتلك أكثر من ٥٦٪ من التليفونات وحـوالى ٣٨٪ من مجموع المركبات الآلية[1] • ويبدو أن « المدن الاولى » فى أفريقيا تؤثر تأثيرا سالبا على الريف المحيط بها ، على الرغم مما يذهب اليه بعض الدارسين من أن هذه المدن هى الاداة الاساسية للتنمية الاقتصادية فى أفريقيا بوجه عام • فاذا ما خرج المرء من هذه المدن ، واجه أدغال أفريقيا التى طالما صورتها الكتابات الادبية • ومعنى ذلك أن المـدن الافريقية لا تلعب دورا هاما فى « تحضير » الريف المحيط بها سـواء على المستوى الثقافى أو البنائى • ولقد أبدى بعض الدارسين المعاصرين اهتماما كبيرا بدراسة العلاقة بين نمو المدن الافريقية وظهور حركات الاستقلال الوطنى • وعلى الرغم من اتفاق هـؤلاء الدارسين على الـدور الذى لعبته المـدن الافريقية فى التعجيل بالحصول على الاستقلال ونمو النزعات القومية [2]، الا أننا لا نستطيع تجاهل الدور الاستغلالى الذى مارسته هذه المدن على الريف الافريقى بوجه عام • وربما كان هذا الاستغلال الحضرى أكـثر وضوحا فى أفريقيا من أية قارة أخرى بسبب تخلفها الشديد اذا ما قورنت بأمريكا اللاتينية أو آسيا • وفى محاولة لتشخيص أبعاد التحضر فى أفريقيا أوضح وليام هانس Hance أن المدن الافريقية تتميز بمعـدلات عالية من النمو السكانى بسبب طوفان الهجرة الريفية اليها ، وارتفاع نسـب الزيادة الطبيعية ، مما أضعف العلاقة بين معدلات النمو السكانى الحضرى من ناحية ، ومعدلات النمو الاقتصادى من ناحية أخرى • كذلك فان زيادة معدلات التحضر فى أفريقيا لا ترتبط بتنمية ملحوظـة للمناطق الريفية ، مما يشجع على « الخروج الريفى » و « النمـو الحضرى » • وهذا يعنى

---

(1) William Hance; Population; Migration and Urbanization in Africa; Columbia University Press; New York; 1970; pp. 293-394.

(2) T. Hodgkin; Nationalism in Colonial Africa; Muller; London; 1956; p. 18.

أن علاقة المدينة الافريقية بظهيرها الريفى هى علاقة سيطرة اقتصادية وبشرية وثقافية • وفضلا عن ذلك فان المدن الافريقية تشهد أعلى معدلات بطالة فى العالم ، كما أن المهاجرين اليها يفتقرون عموما الى المهارات التى تمكنهم من الالتحاق بأعمال انتاجية مفيدة[1] •

والواقع أن العلاقة بين التحضر والنمو الاقتصادى فى أفريقيا ليست بمثل هذا القدر من البساطة • فمن وجهة النظر الديموجرافية نجد أن أفريقيا تشهد الآن واحدا من أعلى معدلات النمو الحضرى فى عالمنا المعاصر• ففى غرب أفريقيا تضاعفت أحجام المدن خلال فترة تقل عن العقد ، بينما مايزال أكثر من ٨٠٪ من سكان أفريقيا يعيشون فى مناطق ريفية ، ويتخذون من الزراعة مصدرا أساسيا لعيشهم • ومعنى ذلك أنه برغم ارتفاع معدلات النمو الحضرى الافريقى ، الا أن المدن لا تضم الا نسبة محدودة من مجموع السكان الافريقيين[2] • إن الدور الذى لعبته المدن الافريقية خلال القرن العشرين يتجاوز حدودها الادارية والقانونية م ذلك أن أهمية هذه المدن لا تعود فقط الى استقبالها لكثير من المهاجرين الريفيين ، بل تعود أيضا الى كونها تعبيرا عن أسلوب فى الحياة يتطلع اليه كثير من السكان الريفيين • فالمدينة بالنسبة لهم هى التعبير الحقيقى عن الحياة « السعيدة » الجديدة ، وهى رمز التصميم على تجاوز ظروف الماضى • ولا يعنى ذلك أن الافريقيين يرغبون فى التخلص من ماضيهم بقدر ما يعنى أنهم يتطلعون الى فرص اقتصادية واجتماعية وثقافية أفضل من تلك المتاحة لهم • ومن هذه الزاوية بدأ بعض علماء الاجتماع يذهبون الى أن التحضر هو أحد العلامات الهامة المعبرة عن النمو الاقتصادى • غير أن الواقع

---

(1) William Hance; Population; Migration and Urbanization in Africa; op. cit; pp. 293-294.

(2) H. Miner; «The City and Modernization : an Introduction» in H. Miner (ed.); The City in Modern Africa; New York; 1967; pp. 1-20.

الحضرى الافريقى لا يؤيد ذلك تماما • فزامبيا ــ مثلا ــ ذات معدل تحضر منخفض برغم أن متوسط الدخل الفردى فيها عال نسبيا • كما أن بعض الدول الافريقية الفقيرة اقتصاديا تعرف أيضا معدلات منخفضة من التحضر كما هو الحال بالنسبة الى مالاوى • وفى نفس الوقت نجد دولة كنيجيريا ذات معدل تحضر مرتفع مصاحب لمعدل نمو اقتصادى مرتفع أيضا[1] • ومعنى ذلك أنه اذا كانت بعض الدول الافريقية « المتحضرة » نسبيا تشهد نموا اقتصاديا ملحوظا ، الا أننا نجد دولا أخرى « أقل تحضرا » برغم أنها تشهد نموا اقتصاديا سريعا • على أننى لا أميل الى الاستغراق فى هذه التفاصيل الاحصائية التى قد تؤدى ــ فى نهاية الامر ــ الى « تجهيل » الواقع الحضرى الافريقى • فبرغم تسليمى بأهمية هذه التفاصيل الاحصائية ، الا أنها يجب أن تستند الى فهم عميق للبناء الاجتماعى ــ الاقتصادى الافريقى • واذا كانت أفريقيا تضم عددا كبيرا من « المدن الاولى » ، إلا أنها تضم أيضا عددا غفيرا من « المدن الضعيفة » المتهالكة أو قل « تراب المدن » • وتحاول هذه المدن « القزمية » مقاومة الانقراض والسيطرة التى تمارسها عليها « المدن الاولى » • كذلك فان ارتفاع معدلات البطالة فى المدن الافريقية (يتراوح فيما بين ١٠٪ و ٣٠٪ بالنسبة للذكور الذين تزيد أعمارهم عن أربعة عشر عاما) يجعل من الحياة فيها نضالا مستميتا لا يفضى دائما الى انتصار على الواقع الحضرى[2] • وربما كان ذلك هو أحد الاسباب التى دفعت بعض الدارسين المعاصرين الى القول بأن « نمط التحضر الافريقى هو أكبر عقبة تواجه التنمية الاقتصادية فى هذه القارة السوداء » •

ولا نستطيع فهم المكانة التى تحتلها المدن الافريقية دون التعرف على

---

(1) A. L. Mabogunie; Urbanization in Nigeria; London; 1968.

(2) A. W. Southhall; «Determinants of the Social Structure of African Urban Populations»; in D. Forde (ed.) Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahara; Paris; 1959; pp. 557-578.

الظروف التاريخية ــ البنائية التى مكنتها من ذلك • اذ أن هذه المدن كانت موطن الادارات الاستعمارية ، ثم ما لبثت أن تحـولت بعـد الاستقلال الوطنى الى عواصم سياسية ونافورات ثقافية ، حتى بدت وكانها نوافـذ أفريقيا على العـالم • واذا كان القرويون الافريقيون يستطيعون الآن الاستمـاع الى الراديو وقراءة الصحف ومشـاهدة التلفزيون ، الا أن مجتمعاتهم الريفية لا تمثل بالنسبة لهم نموذج « الحياة الطيبة » • إن تاريخ المدن الافريقية ــ شأنها شأن بقية مدن الدول النامية ــ هو تاريخ الثقافة السياسية والابداع والابتكار • وبسبب ما تنطوى عليه هذه المدن من تنوع عرقى واجتماعى ولغوى وسياسى ، فانها تتيح للقرويين المهاجرين اليها فرص الاختيار بين أساليب مختلفة من الحياة • وسواء كانت المـدن الافريقية مصدرا للتحديث أو عبئا على البناء الاجتماعى القومى ، فان الحقيقة ستظل باقية وهى ؛ أن هذه المدن ستظل تلعب أدوارا بالغة الاهمية حتى ولو نهضت القرى من كبوتها واستطاعت الاسهام فى تحقيق معدلات عالية من النمو الاقتصادى • وترتبط هذه القضية بكثير من الاعتبارات الايديولوجية والمثالية التى ماتزال تسيطر على زعماء الدول الافريقية • فعلى الرغم من جهود جوليوس نيريرى لاحداث تغييرات حقيقية فى كل من المدينة والقرية ، الا أن هذه التغيرات ماتزال محدودة مكبلة بسبب السيطرة القوية التى تمارسها الصـفوة البيروقراطية على كافة وجـوه الحيـاة الاجتماعية فى تنزانيا[1] • واذا كانت غالبية أصوات الناخبين تتركز فى المناطق الريفية الافريقية ، الا أن « القوى البيروقراطية » تتخذ من المدن الكبرى موطنا لها • وهكذا تبـدو « الاوليجاركية الافريقية » حضرية الاقامة ، بينما « البروليتاريا الافريقية » ريفية النشأة والاقامة أيضا[2] • لذلك ليس من الغرابة أن نجـد المدن الافريقية موطنا للسخط السياسى

---

(1) R. Rotberg and A. A. Mazrui (eds.) Protest and Power in Black Africa p. cit; p. 13.

(2) J. Nelson; «The Urban Poor : Disruption or Political Integration; in Third World Cities; op. cit; p. 395.

ومجالا خصبا لظهور الصفوات التى تتخذ من الانقلابات العسكرية هواية مفضلة ◙

وتشهد المدن الافريقية نموا سكانيا هائلا بسبب زيادة معدلات الهجرة الريفية اليها • وفى حدود البيانات الاحصائية المتاحة يمكن القول إن نسبة كبيرة من سكان هذه المدن هم من الوافدين أو المهاجرين اليها • ففى أبيدجان (عاصمة ساحل العاج) ، لوحظ أن ٢٩٪ فقط من سكانها هم الذين ولدوا داخلها • وفى أديس أبابا اتضح أن ٤٤٪ من سكانها هم الذين ولدوا ونشأوا فيها • ومع ذلك فيجب أن نأخذ فى الاعتبار أن ٧٠٪ من الذين ولدوا فى أديس أبابا لا تزيد أعمارهم عن خمسة عشر عاما • وربما كانت عوامل « الطرد الريفى » أشد تأثيرا من عوامل « الجذب الحضرى » بالنسبة لافريقيا ، وان كنا نميل الى تأكيد العلاقة التكاملية ــ لا التفاضلية ــ بين هذه العوامل • ففى شرق افريقيا قد يبدو الاستمرار فى الاعتماد على الاقتصاد الزراعى بالنسبة للفلاحين أمرا لا يخلو من مخاطر ؛ ذلك أن الاراضى الزراعية الرعوية غالبا ما تتعرض للاستنفاذ ، مما قد يفرض على الفلاحين ظروفا اقتصادية قاسية لا يستطيعون تحملها • كما أن تكاليف تزويد هذه المناطق بالمياه والمدارس والمساكن قد تكون باهظة • ومعنى ذلك أن عوامل الطرد تلعب دورها قبل أن تتمكن عوامل الجذب من الظهور • ومن ذلك يبدو أن الهجرة الى المدينة قد لا تكون فقط بسبب الرغبة فى الحصول على فرص اقتصادية أفضل ، بل لانها الحل الوحيد المتاح من أجل الاستمرار فى البقاء • وخلال الحقبة الاستعمارية كان العمال الافريقيون يجبرون على ترك قبائلهم والالتحاق بأعمال التعدين والزراعة والتشييد • فلقد أجبر الاستعمار البلجيكى العمال الافريقيين على العمل فى مشروع مد السكك الحديدية من الكونغو الى المحيط • وبانتهاء هذا المشروع فى سنة ١٩٣٤ وصل عدد الضحايا من العمال الافريقيين أكثر من خمسة عشر ألفا • ومثل هذا يقال عن كل من الاستعمار البريطانى والفرنسى • واذا كانت الهجرة الاجبارية القهرية قد اختفت من أفريقيا ، الا أن الهجرة الاختيارية الى المدن (وان لم تخل من جبرية) قد أضحت

ظاهرة واسعة الانتشار • ويتعين علينا الاشارة الى بعض الضغوط التى تمارسها حكومة جنوب أفريقيا على العمال الزراعيين من أجل الهجرة الى المدن والالتحاق بأقسى وأشق وأرخص الاعمال اليدوية • إننا نجد فى دولة ليبيريا شركة فايرستون للمطاط تلجأ الى رؤساء القبائل وتمنحهم مكافآت رمزية من أجل الحصـــول على الاعداد الضرورية من العمـــال الزراعيين اللازمين للعمل فى مزارع المطاط[1] • واذا كانت القوة لم تعـــد تستخدم بشكل مباشر من أجـــل تهجير العمال الزراعيين ، الا أنهم يجـــدون أن الاختيار الوحيد المتاح أمامهم هو الهجرة للعمل فى المزارع أو المصانع • ويبدو أن بعض الحكومات الافريقية قد بدأت تعى النتائج الســـياسية المترتبة على الهجرة الريفية الحرة الى المدن ، خاصة وأنها تؤدى بعد ذلك الى رفع معدل البطالة بالنسبة لسكان المدن أنفسهم • ففى غانا وســـاحل العـــاج فرضت الحكومتـــان بعض القيـــود على الهجـــرة الريفية ـــ الحضرية[2] •

وتميل الدراســـات السوسيولوجية والانثروبولوجية المعنية بالمـــدن الافريقية الى ابراز كل من عوامل التفكك والتكامل داخل الحياة الحضرية • فعلى الرغم من أن الروابط الاسرية الحضرية قد تتعرض للضعف ، الا أن هناك عناصر ثقافية تحول دون انهيارها تماما • وهذا يعنى ان المدن الافريقية قد لا تشهد ما ذهب اليه لويس ويرث Wirth من سيطرة « السطحية » و « اللاشخصية » و « الانتقـــالية » عليها • وأعتقـــد أن « المعضـــلة الديموجرافية » التى تواجهها المـــدن الافريقية تؤدى بدورها الى نتائج اجتماعية وثقافية وخيمة • فمعظم هذه المدن تشهد خللا فى التوزيع النوعى

---

(1) R. Clower et al; Growth Without Development : An Economic Survey of Liberia; Northwestern Univ. Press; 1966; p. 158.

(2) M. Banton; «Social Alignment and Identity in a West Africa City;» in Hilda Kuper (ed.); Urbanization and Migration in West Africa; Univ. of Calif. Press; Berkeley; 1966.

(ذكور ــ اناث) للسكان[١] • واذا كنا نجد فى مدن غرب أفريقيا توزيعا نوعيا معتدلا نسبيا (٩٥ أنثى لكل ١٠٠ ذكر) ، الا أننا نجد فى مدن وسط أفريقيا توزيعا نوعيا مختلا الى حد ما (٨٥ أنثى لكل ١٠٠ ذكر) • ويزداد هذا الاختلال حدة فى مدن جنوب أفريقيا حيث تمنع الحكومة العنصرية العمال الافريقيين الحضريين من اقامة زوجاتهم معهم داخل المدن • وفى ظل مجتمع مفتقد الى التقاليد الاسرية يزداد الادمان على الخمور والميل الى ارتكاب الجرائم فضلا عن الاغتصاب • وتشهد بعض الدول الافريقية معدلات عالية نسبيا من الجرائم بسبب الظروف السياسية القلقة والاحوال الاقتصادية القاسية • فبعد انتهاء الحرب الاهلية النيجيرية واجهت الحكومة مشكلة ارتفاع معدل الجرائم ، مما اضطرها الى الاخذ بعقوبة الاعدام فى محاولة للحد من السلوك الاجرامى •

وتمثل المدن الافريقية اطارا عاما تتداخل فيه عناصر الحياة القبلية التقليدية مع عناصر الحياة الحضرية الحديثة • فعلى الرغم من أن المحاكم الرسمية تتولى الفصل فى المنازعات القانونية التى تنشأ بين الافراد ، الا أن « محاكم كبار السن » مانزال تلعب دورا هاما فى هذا المجال[٢] • ومرة أخرى نجد واقع المدن الافريقية لا يؤيد وجهة نظر ويرث الذاهبة الى سيطرة « الروح البيروقراطية » الرسمية على المدن المعاصرة • وتبدو الحياة الحضرية بالنسبة لسكان المدن الافريقية تجربة جديدة ، خاصة وأن نسبة كبيرة منهم من المهاجرين اليها من المناطق الريفية • ولقد أوضحت بعض الدراسات أن المهاجرين الريفيين الجدد يقررون التوجه الى المدينة وهم يتوقعون بعض المساعدات التى سيحصلون عليها من زملائهم المهاجرين

---

(1) A. L. Epstein; «Urbanization and Social Change in Africa»; in G. Breese; (ed.) The City in Newly Developing Countries; op. cit; pp. 246-287.

(2) Michael J. Lowy; «Me Ko Court : The Impact of Urbanization on Conflict Resolution in a Ghanian Town»; in G. Foster and R. Kemper (ed.) Anthropologists in Cities; Little; Brown. Boston; 1974; pp. 153-177.

القدامى • لذلك فإننا نتوقع وجود روابط شخصية وعائلية قوية بين هؤلاء المهاجرين برغم الضغوط الشديدة التى قد يتعرضون لها • ومن الممارسات الشائعة فى المدن الافريقية أن يتعهد الاقارب الحضريين المهاجرين الجدد بالتشجيع والدعم الى أن يتمكنوا من الاستقلال الذاتى • لذلك فان هؤلاء المهاجرين قد لا يستشعرون العزلة الاجتماعية ، مما يساعدهم بعد ذلك على الدخول فى علاقات اجتماعية أوسع تشمل سكان الحى ، أولئك الذين ينتمون الى نفس الاصول الريفية أو القبلية فى معظم الأحيان • ولقد أوضحت دراسة تناولت الهجرة الريفية الى مدينة دار السلام (تنزانيا) أن الافريقى القروى المهاجر الى المدينة يعرف مسبقا الاشخاص الذين سيقدمون له يد المساعدة ، تلك التى قد تبدأ بايوائه لتنتهى بالحصول على عمل له[1] • وفى غرب أفريقيا يمكننا أن نجد أيضا ــ وبدرجة أكبر ــ هذا النمط من مساعدة المهاجرين الريفيين الى المدن • وفى حالات الهجرة الموسمية التى اشتهرت بها المدن الافريقية نجد الاسرة الحضرية تقدم العون للمهاجر طوال فترة اقامته التى قد تستمر لعدة شهور ، يعود بعدها الى القرية لممارسة أعماله الزراعية •وتكاد تنفرد المدن الافريقية بهذا النمط من الهجرة الموسمية • فحينما يحين وقت الحصاد يبدأ المهاجرون الى المدينة فى العودة الى قراهم لممارسة نشاطاتهم الزراعية •

واذا كانت بعض الدراسات قد أوضحت أن التحضر قد أضعف العلاقات والروابط التقليدية الافريقية ، الا أن هناك شواهد واقعية مقابلة تؤكد أن التحضر فى أفريقيا قد أدى الى نتيجة عكسية ؛ أعنى تقوية الانتماءات القبلية[2] • ذلك أن الهجرة الى المدينة تعنى ــ ضمنا ــ أن المهاجر يتمتع بوعى قبلى عميق يمكنه من الاحتكاك بالافراد الذين ينتمون

---

(1) J. A. Leslie; A Social Survey of Dar es Salaam; Oxford Univ. Press; London; 1963; p. 33.

(2) William J. Hanna and Judith L. Hanna; Urban Dynamics in Black Africa; Aldine-Atherton; Chicago; 1971; p. 107.

الى ثقافات أخرى • كذلك فان سلوك المهاجرين الريفيين الى المدن الافريقية يعكس استمرارا لسيطرة الروح القبلية ، حيث نجد بعض الاحياء تكاد تكون مقصورة الاقامة على الذين ينتمون الى أصول قبلية متشابهة • ولقد أوضح جدعون جوبرج Sjoberg أن الجماعات الثقافية والعرقية والقبلية والمهنية تؤدى عددا من الوظائف الهامة بالنسبة للمهاجرين الجدد الى المدينة • فالجماعات القبلية والعرقية تقدم هؤلاء المهاجرين لسكان المدينة القدامى وتزودهم بالافكار والمعلومات التى تمكنهم من مواجهة الحياة الحضرية الجديدة ابتداء من كيفية الحصول على مسكن وعمل حتى احترام قواعد السلوك الحضرى • ونظرا لأرتباط هذه الجماعات القبلية والعرقية بالثقافة الريفية ، فان المهاجرين الجدد يجدون فيها ما يربطهم بالماضى وما يمكنهم من مواجهة الحاضر • وفى كثير من الاحيان يبدو المهاجر القديم بالنسبة للمهاجر الجديد أمل المستقبل وحلم النجاح • كذلك أوضح جوبرج أن المهاجرين قد يعودون الى قراهم من فترة لاخرى ، مما قد يسهم فى نشر الثقافة الحضرية داخل المناطق الريفية[1] • وأيا كان الأمر فان الروابط القرابية والقبلية مازال تلعب دورا هاما فى عملية التكيف الاجتماعى الحضرى ، برغم ما يذهب اليه البعض من أن هذه الروابط تحول دون نمو الروح القومية وتعوق مشروعات التنمية والتحديث • وتشير التطورات السياسية التى مرت بها معظم الدول الافريقية الى أن التوحدات والانتماءات القبلية تلعب دورا مزدوجا : فهى وان كانت مصدرا للتضامن الاجتماعى ، الا أنها سببا فى حدوث الاضطرابات السياسية • ففى أثيوبيا كانت الصفوة الحاكمة خلال حكم الامبراطور المخلوع هيلاسيلاسى تنتمى الى قبيلة أمهرة ، كما أن جومو كينياتا قد أحاط نفسه بطبقة حاكمة ينتمى كل أفردها الى قبيلته • ومن الامور المألوفة تماما فى أفريقيا أن يلجأ قادة الانقلاب الجديد الى

---

(1) Gideon Sjoberg; «Cities in Developing and in Industrial Societies: A Cross-Cultural Analysis»; in P. Hauser and Leo Schnore (eds.) The Study of Urbanization; Wiley; New York: 1965; pp. 226-227.

تغيير القادة السياسيين والاداريين الذين كانوا جزءا من النظام القديم ، واستبدالهم بقادة ينتمون الى قبيلة الزعيم السياسى الجديد • ولعل خير مثال على ذلك الحرب الاهلية النيجيرية التى حاولت خلالها قبيلة الايبو اقامة دولة مستقلة (بيافرا) ، لكنها فشلت فى تحقيق هذا الهدف • والواقع أن هناك تعارضا واضحا بين المبادىء القومية التى يعلنها القادة الافريقيون والممارسات القبلية التى كثيرا ما تبدو فى المواقف الفعلية •

ومن الطبيعى أن تؤدى الحياة الحضرية الى اضعاف معالم البناء التقليدى الريفى • وقد نستشهد على ذلك بالتغير الذى طرأ على مكانة كبار السن من القرويين • إن الشباب الافريقى المهاجر الى المدينة يستطيع تحقيق دخل أعلى من ذلك الذى يحققه شيخ فى القرية ، كما أن نظام الاجر الفورى من شأنه اضعاف الاحساس بالروابط الجماعية التى ألفها الافريقي فى قريته قبل هجرته الى المدينة[1] • ومعنى ذلك أن الشاب المهاجر يستطيع تحقيق الاستقلال الاقتصادى فى سن مبكرة نسبيا ، كما يتمكن من التحرر من القيود القبلية والقرابية وما تفرضه عليه من التزامات • ولا يستطيع شيخ القرية أن يقدم نصائح فعالة لهذا المهاجر بسبب افتقاده الى المعلومات المفيدة فى هذا المجال ، بل ان مثل هذه النصائح قد تؤدى الى عواقب وخيمة اذا ما أخذ بها المهاجر وطبقها فى حياته الحضرية • إن شيخ القرية الذي يحتل مكانة بارزة بسبب تقدمه فى العمر هو — فى نظر المهاجر — شخص عاطل لا عمل له • ويشير ذلك الى ان التأثير الذى تمارسه الصفوة الريفية « التقليدية » يميل الى الضعف والتقلص خاصة اذا ما تعلق ذلك بالحياة الحضرية • وفى داخل المدن الافريقية يمكننا أن نجد الآن صفوة وطنية فى طور التكوين • وتتألف

---

(1) P. Mercier; «On the Meaning of tribalism in Black Africa;»; in Van Den Berghe (ed.); Africa : Social Problems of Change and Conflict; San Francisco : Chandler; 1965; pp. 130-144.

هذه الصفوة من الشباب الذين تلقوا تعليمهم فى الدول الاوربية وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا • ويعمل معظم هؤلاء الشباب فى المهن الفنية العليا كالطب والمحاماة والهندسة والتدريس الجامعى • ويعانى هؤلاء الشباب من « الازدواج الثقافى » • فبينما لا يستطيعون تجاهل الثقافة الافريقية الوطنية ، نجدهم يبدون ارتباطا قويا بالثقافة الغربية • وفى معظم الاحيان يحصل هؤلاء الشباب على دخول عالية اذا ما قورنت بتلك التى يحصل عليها العمال الحضريون • ففى غرب أفريقيا ــ مثلا ــ يحصل الشاب الجامعى على عشرة أضعاف دخل العامل الحضرى[1] •

ولا نستطيع أن نغفل دور الجماعات « الآسيوية » داخل المدن الافريقية • ففى شرق وجنوب أفريقيا عاشت جماعات من هنود شبه القارة الهندية يطلق عليها عادة الجماعات « الآسيوية » • وفى بداية الامر هاجرت هذه الجماعات الى افريقيا للعمل فى مد السكك الحديدية ، لكن كثيرا من أفرادها قرروا البقاء والاقامة الدائمة فى المدن الافريقية • وخلال الحقبة الاستعمارية كان الهنود يشغلون وضعا يتوسط الاداريين الاستعماريين من ناحية ، والعمال الافريقيين من ناحية أخرى • ولقد عمل هؤلاء الهنود فى الوظائف المدنية الدنيا ، كما أن الناجحين منهم قد مارسوا أعمال التجارة والمقاولات[2] • ففى كينيا وأوغندا وتنزانيا كان كل أصحاب المحلات الصغيرة من « الآسيويين » ، كما كانت لهم أسواقهم وأحياءهم الخاصة التى تفصلهم عن بقية السكان الافريقيين • والواقع أن التفاعل الاجتماعى بين « الآسيويين » والافريقيين كان محدودا للغاية • وعلى الرغم من المكانة الاقتصادية العليا نسبيا التى حققها « الآسيويون » داخل مدن شرق أفريقيا ، الا أن أوضاعهم ما لبثت أن تعرضت للخطر •

---

(1) P. C. Lloyd; Africa in Social Change; Penguin Books: Baltimore: 1967; p. 150.

(2) A. Southhall; «Determinats of the Social Structure of African Urban Populations With Special Reference to Kampala»; in D. Frode (ed.) Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of the Sahara; op. cit.

فبظهور حركات الاستقلال الوطنى فى أواخر ستينيات القرن العشرين ، بدأت الحكومات الافريقية فى طرد هؤلاء الآسيويين والاستيلاء على ممتلكاتهم دون تعويض مقابل فى معظم الاحيان • ومانزال نتذكر ما فعله عيدى أمين « بالآسيويين » فى سنة ١٩٧٢ حينما أعلن تأميم ممتلكاتهم دون تعويض مقابل • وباستثناء جنوب أفريقيا التى مانزال تعرف العمالة « الآسيوية » ، فان أفريقيا الآن لم تعد تعرف عمالة « آسيوية » يعتد بها • بل إن التقارير الحديثة المعنية بهذه القضية تشير الى أن هذه العمالة قد وصلت الى نقطة التصفية الكاملة •

وتعانى المدن الافريقية من معظم المشكلات الحضرية التى تعانى منها الدول النامية عموما والتى أشرنا الى جانب منها فى الفصلين السابقين • وما يعنينا هنا هو الاشارة الى بعض المشكلات النوعية التى تواجهها المدن الافريقية • ولقد سبق أن أوضحنا كيف أن هذه المدن تواجه مشكلة مستعصية كالبطالة ، وأن مواجهتها والتغلب عليها قد يتجاوز فى بعض الاحيان قدرات الحكومات الافريقية بسبب ارتباط هذه المشكلة بالبناء الاجتماعى ــ الاقتصادى الافريقى • أما المشكلة الخطيرة الثانية التى تواجهها هذه المدن فهى الاسكان • ولا تقتصر هذه المشكلة على قلة أو ندرة الوحدات السكنية فى المدن الافريقية ، بل انها تتصل أيضا بانتشار أحياء واضعى اليد أو الاحياء المتخلفة عموما • وتشير بعض التقديرات الى أن ثلث سكان المدن الافريقية يعيشون فى « أحياء الصفيح » الواقعة على أطرافها • ونظراً لارتفاع معدلات الهجرة الريفية ــ الحضرية ، واجهت المدن أزمة اسكانية حادة • غير أن حجم هذه الاحياء يختلف من دولة لاخرى • ففى كازابلانكا شمالا يصل عدد سكان هذه الاحياء الى ١٨٠ر٠٠٠ نسمة ، وفى لوساكا جنوبا يصل هذا العدد الى ٨٠ر٠٠٠ نسمة • وتحاول معظم الحكومات الافريقية تنفيذ بعض مشروعات الاسكان الشعبى ، وان كان نجاحها فى ذلك يتوقف على مواردها وامكانياتها الاقتصادية[1] • وفى مواجهة نمو الاحياء المتخلفة لجأت بعض الدول الى

(1) R. Clower; et al; Growth Without Development; op. cif; -93.

اصـــدار تشريعات تنص على عـــودة المهاجرين العاطلين الى قراهم والا تعرضوا للعقوبات التى يفرضها القانون • غـــير أن هذه التشريعات لم تنجح بعد فى تحقيق أهدافها بسبب قوة عوامل الطرد والجذب • كذلك نجد حكومات أفريقية تلجأ الى النهوض بالقرى وجعلها أكثر جاذبية لسكانها فى محاولة للحد من هجرتهم الى المدن • غير أن جهود هـــذه الحكومات فى هذا المجال لا تتجاوز « المشروعات التجريبية » ، ذلك لان النهوض بالريف الافريقى يتجاوز القدرات الاقتصادية المحدودة للدول الافريقية ، فضـــلا عن أن الهجرة الى المدن تتحدد فى ضوء ضغوط اقتصادية واجتماعية قد لا تسهم البرامج الحكومية الحالية فى الحد منها •

وبامكاننا تفسير المشـــكلات الحضرية الحادة التى تواجهها المـــدن الافريقية فى ضوء التخلف الاقتصادى الذى تعانى منه هذه القارة • فعلى الرغم من أن الدول الافريقية قد تحررت من الاستعمار الاوربى ، الا أنها لم تتحرر بعد من مشكلة الاعتماد على محصول زراعى واحد ووحيد ، مما يعرض اقتصادياتها لتقلبات الاسعار العالمية للمحاصيـــل التى تخضـــع ـــ فى معظم الاحيان ـــ لاحتكار عالمى صـــارخ • ففى منتصف الستينيات منيت غانا بنكسة اقتصادية خطيرة بسبب انخفاض أسعار الكاكاو ، كمـــا أن أثيوبيا قد تعرضت هى الاخرى لنكبة مماثلة خلال تلك الفترة بسبب تقلبات أسعار البن • ومثل هذا يقال عن ليبيريا فيما يتعلق بالمطاط الخام ، وزامبيا فيما يتعلق بالنحاس الخام • وهذا يعنى صعوبة وضـــع خطط اقتصادية بعيدة المدى بسبب تقلب أسعار المواد الخام • وفضلا عن ذلك فان معدلات النمو الاقتصادى فى أفريقيا بوجه عام ضعيفة وبطيئة للغاية اذا ما قورنت بقريناتها فى أمريكا اللاتينية وآسيا • فلقد أوضحت احدى الدراسات المسحية أن ٢٨ دولة أفريقية (تضم ٧٢٪ من مجموع ســـكان القارة) لم تتمكن من تحقيق المعدلات الدنيا من النمو الاقتصادى (حوالى ٣٪)[1] • فاذا ما تناولنا قطاع الزراعة ، لاحظنا أن ٧٧٪ من الســـكان

(1) John Palen; The Urban World; op. cit; p. 268.

الافريقيين الذين هم فى سن العمل يمارسون النشاطات الزراعية . على الرغم من أن معدلات نمو الانتاج الزراعى قد ازدادت فقط بنسبة ٢٪ خلال الستينيات . واذا ما أخذنا فى الاعتبار الزيادة السكانية الافريقية ، فان نصيب الفرد من المواد الغذائية قد إنخفض الى ٢ر٪ خلال نفس الفترة . أما الصناعة فى أفريقيا فليست أفضل حالا من الزراعة . اذ لاتزال الصناعة تدور حول انتاج المواد الخام أكثر مما تدور حول تصنيعها . وفضلا عن ذلك فهناك شواهد عديدة تشير الى أن كثيرا من المشروعات الصناعية الافريقية مانزال تفتقر الى المهارات اللازمة والقوى العاملة المدربة فضلا عن قلة الاستثمارات الانتاجية بوجه عام[1] . ويمكننا أن نلمس اختلافات ملحوظة بين الدول الافريقية فى هذا المجال . ففى نيجيريا — مثلا — أمكن اقامة بعض المشروعات الصناعية الهامة بسبب عائدات البترول الضخمة التى حققت نموا ضخما منذ سنة ١٩٧٣ .

وقد يكون من المفيد أن نختتم هذا الفصل بمناقشة تحليلية مركزة لاحدى المدن الافريقية . وربما كانت أديس أبابا أكثر ملاءمة من غيرها لتحقيق هدفنا . فهى تجسد كثيرا من المشكلات التى تعانى منها مدن أفريقيا جنوب الصحراء . وتعد أديس أبابا « مدينة أولى » بالمعنى الدقيق لهذا المفهوم . ففى سنة ١٩٧٣ بلغ عدد سكانها ٨٠٠ ر٠٢٥ ر١ نسمة ، أى حوالى ٧٥٪ من مجموع السكان الحضريين فى أثيوبيا . ومع ذلك فان أديس أبابا لا تضم أكثر من ٤ر٣٪ من مجموع سكان أثيوبيا . أما المدينة التالية فى الحجم فهى أسمرة حيث بلغ عدد سكانها فى سنة ١٩٦٧ حوالى ١٧٦ر٤١٠ نسمة . وفيما عدا هاتين المدينتين لانجد فى أثيوبيا مدينة أخرى يزيد عدد سكانها عن ٦٠ر٠٠٠ نسمة . وعلى الرغم من الطابع الريفى الزراعى الذى يسيطر على أثيوبيا ، الا أن أديس أبابا تعد واحدة من أكبر مدن أفريقيا جنوب الصحراء . إذ لا تتفوق عليها فى الحجم سوى مدن

---

(1) A. Southhall; Social Change in Modern Africa; London : Oxford Univerisity Press; 1969.

اتحاد جنـــوب افريقيا وكنشاسا (زائير) ولاجـــوس (نيجيريـــا)[١] . ويصف بعض الدارسين أديس أبابا بأنهـــا عاصمة أفريقيا بسبب الـــدور السياسى الهام الذى تلعبه على مستوى القارة . فهى مقر منظمة الوحدة الافريقية واللجنة الاقتصادية الافريقية التابعة للامم المتحدة . وفضلا عن ذلك فان أديس أبابا قد نشأت نشأة أفريقية خالصة ، برغم أنها قد تأسست خلال العصر الذهبى الاستعمارى (فى سنة ١٨٨٦) . وحينما أقيمت مدينة أديس أبابا (التى تعنى باللغة المحلية : الزهرة الجميلة) لم يكن يتوقع السكان الاثيوبيين أن تظل العاصمة الدائمة ، ذلك أن الامبراطور مينيليك Menilike قد قصد باقامتها أن تكون مقرا مؤقتا . وبسبب عدم وجود تقاليد حضرية راسخة ، فان أباطرة أثيوبيا كانوا يغيرون دائما مواقع عواصمهم لاعتبارات اقتصادية (استنفاذ الموارد الطبيعية) أو أمنية (مواقع دفاعية أفضل) . ولقد كانت أديس أبابا خلال تلك الفترة هى العاصمة الثامنة التى انتقل اليها الامبراطور مينيليك . غير أنه فى هـــذه المرة قد أقام قصره على تل مرتفع يقع فى شمال المدينة ، ثم منح مساعديه وأقاربه قطعا مجـــاورة من الارض لبناء مساكنهم . وفى بداية الامر بدا الطابع الاقطاعى للمدينة واضحا ومحددا حيث اتخذت الاحياء « البدائية » شكلا يعبر بصرامة عن التناقضـــات القبلية والاقطاعية[٢] . وبسبب ارتفاع المدينـــة عن سطح البحر (أكثر من ٨٠٠٠ قدم) فانها لم تعرف بعض الامراض الافريقيـــة كالملاريا والكوليرا ، وان كانت قد واجهت صعوبات فى الاتصال بالمناطق الريفية المنخفضة بسبب تخلف وسائل النقل والاتصال . وبنمو المدينـــة بدأت المنطقة الشرقية المجاورة لقصر الحاكم تتحـــول الى مركز ادارى ، بينما بدأت المنطقة الغربية المحيطة بالسوق القديم تتحول الى مركز تجارى حـــديث نسبيا .

---

(1) United Nations Economic Commission for Africa; Demographic Handbook for Africa; 1971; p. 66.

(2) W. Shack; «Urban Tribalism and the Cultural Process of Urbanization in Ethiopia»; in A. Southhall and E. Bruner (eds.); Urban Anthropology; Chicags; 1966.

ولقد حكم هيلاسيلاسى البلاد منذ سنة ١٩١٦ • وعلى الرغم من أنه قد ألغى الرق رسميا فى أوائل العشرينيات ، الا أن تجارة العبيد لم تختف داخل أديس أبابا وخارجها • وفى سنة ١٩١٠ قدر عدد العبيد فى المدينة بحوالى ٢٥٫٠٠٠ عبدا من بين سكان المدينه الذين بلغ عددهم ٦٠٫٠٠٠ نسمة• وعلى الرغم من أن تجارة العبيد لم يعد لها وجود الآن فى هذه المدينة ؛ الا أن أبناء وأحفاد العبيد السابقين مايزالون يعملون الآن فى أشق وأقسى الاعمال • وخلال فترة الاستعمار الايطالى لاثيوبيا (فيما بين سنتى ١٩٣٦ و ١٩٤١) ، حاول الايطاليون تطوير مدينة أديس أبابا لتكون عاصمة « لامبراطوريتهم الافريقية » التى كانوا يسعون لاقامتها • ومانزال بصمات الايطاليين واضحة على هذه المدينة برغم قصر فترة الاستعمار الايطالى • إذ شق الايطاليون خمسة طرق رئيسية تشع من المدينة ، مما منحها مزيدا من الاهمية باعتبارها مركزا للنقل والمواصلات • وفضلا عن ذلك أقام الايطاليون عددا من المنشآت الحضرية الهامة التى منحت المدينة طابعها الحضرى • وبرغم ذلك كله فمانزال أديس أبابا أقرب الى الطابع الريفى منها الى الطابع الحضرى • فلقد أوضح أحد المسوح أن ٩٠٪ من مساكن المدينه مانزال مبنية بالطوب اللبن ، وأن ٨٠٪ من سكانها لا يستخدمون الادوات الكهربائية المنزلية الحديثة[1] • ومن الممكن تفسير سيطرة هذا الطابع الريفى على المدينة فى ضوء إرتفاع معدلات الهجرة الريفية اليها • فحوالى ثلاثة أرباع السكان الذين تزيد أعمارهم عن خمسة عشر عاما قد ولدوا خارج أديس أبابا • وتعانى المدينة من ارتفاع شديد فى معدل البطالة ، مما يدفع كثير من المهاجرين الى الالتحاق بأعمال الخدمة المنزلية والمهن غير الانتاجية • ويعتبر التسول من الأعمال المألوفة داخل المدينة ، كما أن البغاء يكاد يخضع لقواعد منظمة لا تخطئها الفتاة الحبشية[2] •

وتكاد تكون الوظيفة السياسية ــ الادارية هى أهم الوظائف التى

---

(1) Joh Palen; The Urban World; op. cit; p. 379.
(2) Ibid; p. 380.

تؤديها أديس أبابا • فالصناعات الحرفية فيها تكاد تكون محدودة ؛ كما ان المدينة لا تلعب دورا تجاريا فريدا بالنسبة لاثيوبيا • أما الوظيفة السياسية ــ الادارية فتتمثل فى كون المدينة مقرا للحكومة الاثيوبية ، والسفارات الاجنبية ، ومنظمة الوحدة الافريقية ، واللجنة الاقتصادية التابعة للامم المتحدة • وخلال السنوات الاخيرة قامت الحكومة بتحديث وسائل النقل والمواصلات ، كما بذلت جهودا ملحوظة لتطوير كل من التعليم والصناعة الحرفية • وعلى الرغم من المحاولات العديدة التى قامت بها الحكومة الاثيوبية من أجل ارساء دعائم صناعية قوية ، الا أن التصنيع فى أثيوبيا مايزال فى مرحلته « الطفولية » • أما المواصلات التى تربط أديس أبابا بالمدن والمناطق الريفية الاخرى فمانزال بدائية الى حد كبير[1] • ومع أن هناك رحلات يومية تربط أديس أبابا بأوروبا ، الا أن السلع الثقيلة التى تأتى عن طريق البحر تنقل بعد تفريغها بواسطة سكك حديدية متخلفة أنشأها الفرنسيون حينما كانوا يريدون الربط بين أديس أبابا وجيبوتى • وباختصار فان أديس أبابا مدينة أفريقية تجمع بين عناصر اقطاعية تقليدية وأخرى رأسمالية حديثة • إنها مدينة السيارة « المرسيدس » التى لا يزيد فيها متوسط الدخل الفردى عن ٦٩ دولارا فى العام • هى مدينة الشقق الفارهة دون شبكة مجارى صحية • واذا كانت أديس أبابا قد تعثرت كثيرا خلال حكم هيلاسيلاسى (الاقطاعى ــ الرأسمالى) ، فانها تتطلع الآن للتقدم الحضرى خلال حكم منجستو هيلا مريام (الاشتراكى ــ البروليتارى) • واذا ما تحقق هذا التقدم فان الايديولوجية السياسية تصبح ــ حينئذ ــ مفتاحا سحريا للتنمية الحضرية •

---

(1) Ibid; p. 381.